

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00854 9986

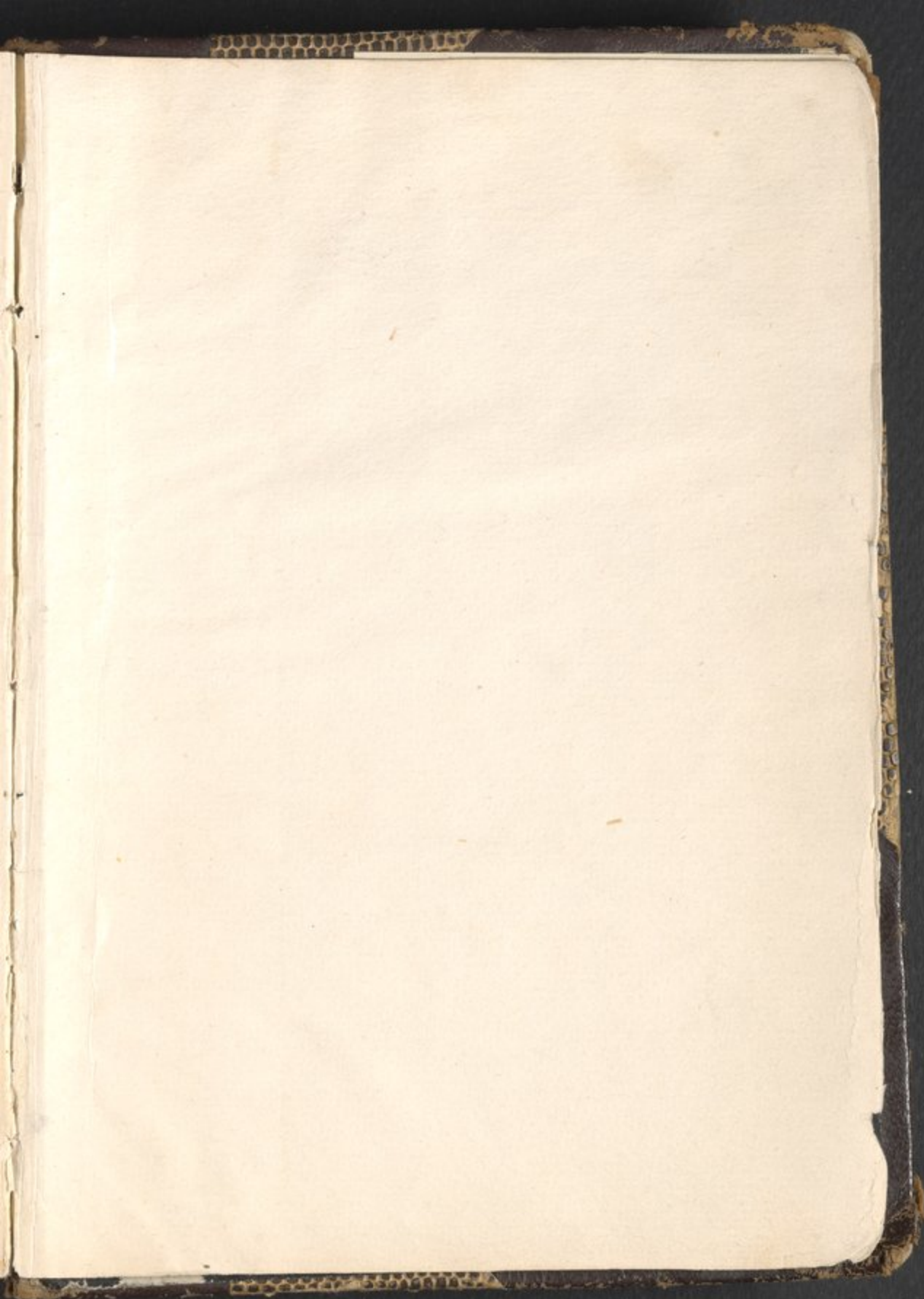
PL
78
J
U
18



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة





توفيق الحكيم

p. 206

عصفور من الشرق



القاهرة

طبعة مركز الأبحاث والدراسات والبحوث

١٩٣٨

03-B146

pt 5-13

الشيخ محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله

توفيق الحكيم
معنى
٢٢٧/٥٠

für min al-Shang

عصفور من الشرق

PJ
7828
K52
U8
1938



القاهرة

مطبعة دار الكتب والخطوط والنشر

١٩٣٨

OCLC
60505955

B28924812
13264011

كتب توفيق الحكيم

التي نشرت

محمد : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ومطبعة المعارف عام ١٩٣٦)

شهر زاد : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤ . وترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الاكاديمية الفرنسية)

أهل الكهف : (مطبعة مصر ومطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)

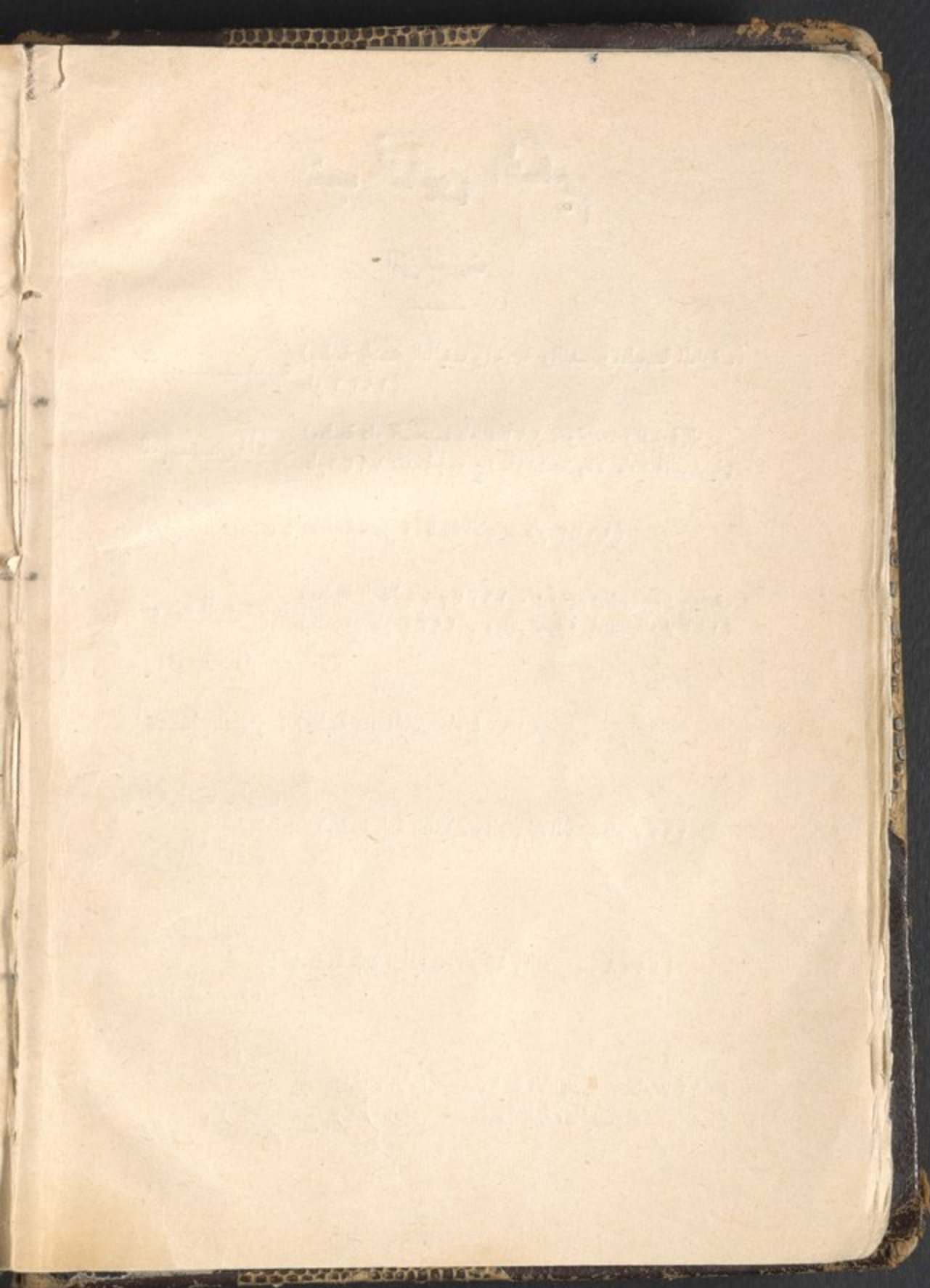
عودة الروح : (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣ . وترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥ . وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧) (في جزئين)

أهل الفن : (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)

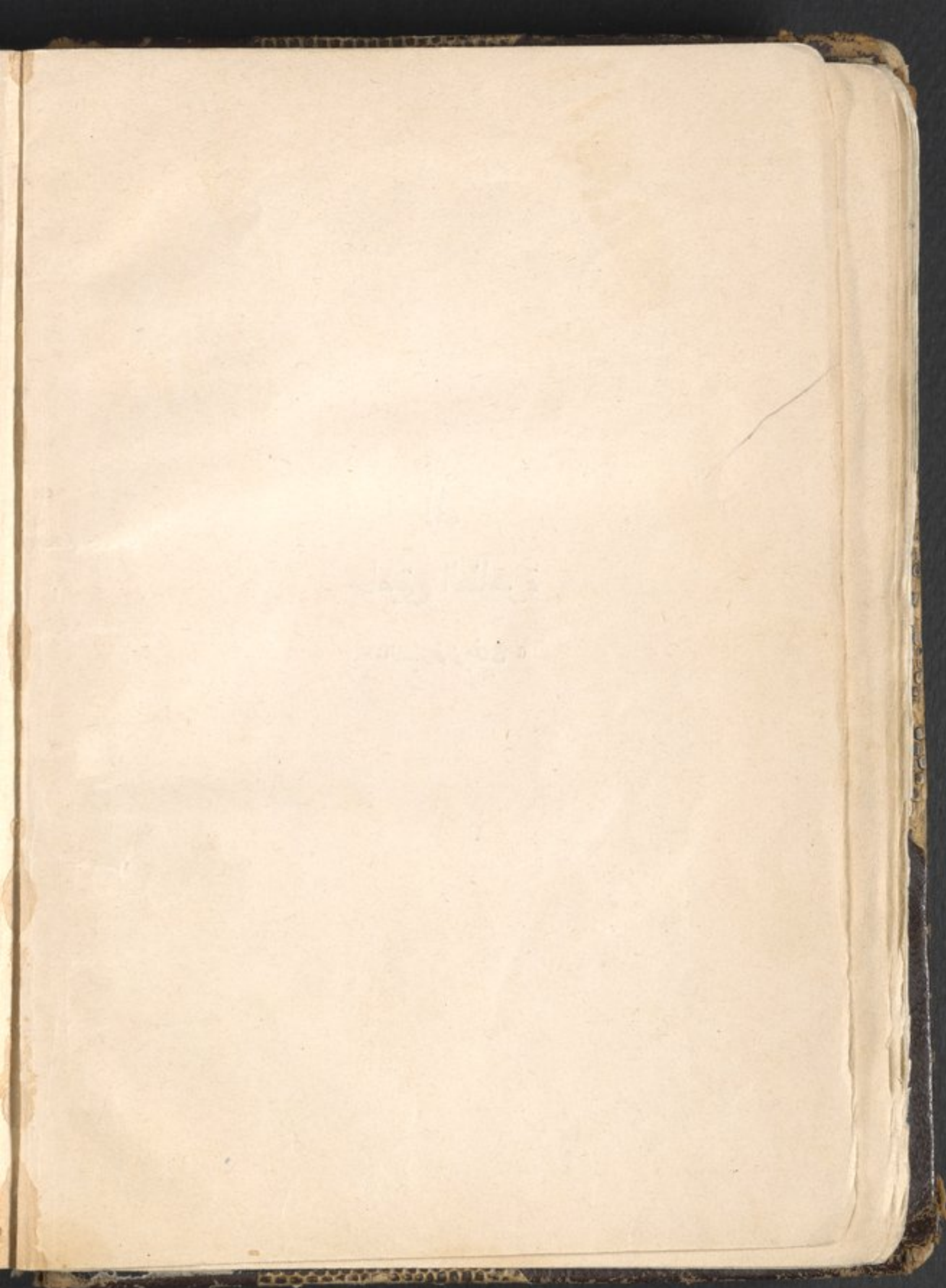
يوميات نائب
في الأرياف : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

عصفور
من الشرق : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

مسرحيات
توفيق الحكيم : (الجزء الأول — مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧) (» الثاني — » لجنة التأليف » »)



إلى
حاميتي الطاهرة
« السيرة زينب »



الفصل الأول

مطر غزير قد أُلجأ الناس إلى مظلات المشارب
والحوانيت ، وإلى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل
المترو . ولم يبق في ميدان « الكوميدي فرانسيز » غير
مياه تتدفق من الميازيب ، وسيارات تخوض في شبه
عباب . آدمى واحد ثبت لهذا المطر ، وجعل يسير
الهيونا غير حافل بشيء ، عيناه الواسعتان تتأملان
نافورة الميدان وهي زاخرة بالماء ، وفيه ذو الشفاه
العريضة ⁽⁷⁾ يلوك شيئاً كالبلح ويلفظ شيئاً كالنواة ، ويده
اليمنى كالرسول الأمين من جيبه إلى فيه تواتيه بالمدد في
غير انقطاع . هذا الآدمي فتى نحيل الجسم أسود الثياب ،
على رأسه قبعة سوداء عريضة الأطار في قمتها فجوة
غائرة كطبقة الحساء قد امتلأت بماء المطر .
وفرغ الفتى من تأمل النافورة ، فغادرها إلى جانب

آخر من الميدان يقوم فيه تمثال الشاعر « دى موسيه »
وهو يستوحى عروس الشعر . فوقف الفتى ينظر إليه
وقد نقش على قاعدته : « لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم
عظيم » ثم تطلع إلى وجه الشاعر فألقى قطرات المطر
تتساقط من عينيه كالعبرات . فتحرك قلبه ، وسكت
فيه ثم همس مررداً كالمخاطب لنفسه :

— لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم ! نعم ...
ومرت في رأس الفتى صور من ماض بعيد
ثم همس :

« — حتى هنا أيضاً يعرفون هذا ! ...
وغرق في التفكير . وغرقت قبعته في الماء ، حتى
فاض فسال على وجهه . وإذا صوت خلف ظهره يصيح به :
— أراهن بمائة فرنك أن لا مخلوق يقف هكذا
أمام هذا التمثال إلا أنت !
فاستدار الفتى سريعاً :

— أندرية !

— قبل كل كلام ، انج بي وبنفسك من هذا

المطر . ليس هذا وقت النظر إلى التماثيل !

— بل هذا وقته ، تأمل يا أندرية ! هذه الدموع

في عيني الشاعر !

— لو لم يكن هذا الشاعر من رخام لولى الساعة

هارباً هو وعروسه إلى أقرب قهوة ، وتركاك وحدك

وسط هذه المياه . . .

ولم ينتظر الفرنسي جواباً من صاحبه ، بل جذبته

إلى مظلة قهوة « الريچانس » القريبة ، ثم نظر في وجهه

فوجد فيه يتحرك :

— عجباً ! ماذا في فك ؟

فلم يجب الفتى . ولفظ من فيه نواة وقعت في الماء

الجارى إلى « البلايع » فصاح به أندرية :

— تأكل بلعاً !

— نعم ، وفي شوارع باريس !

— آه أيها العصفور القادم من الشرق !

— في مصر نسميه « عجوة » هذا النوع من البلح .

إني أتخيل نفسي الآن في ميدان المسجد بحى السيدة

زينب ! وأتخيل هذه النافورة ... ذلك « السبيل »

بنوافذه ذى القضبان النحاسية ..

— كفى تخيلاً . تعال .. لقد سكن المطر ..

— إلى أين ...

فلم يجب أندريه .. وأخذ ينظر إلى ملابس الفتى

ويتأمله من قبعته السوداء و« معطفه » الأسود ورباط عنقه

الأسود إلى خذائه الأسود ثم قال :

— عظيم جداً .

— ما هو العظيم جداً ؟ !

— إنك الآن خير من يصلح للذهاب ...

— إلى فانتنى الجميلة ...

— بل إلى المدافن . . . هلم معي لتشيع جنازة
زوج بنت مدام شارل ! إن عليك « طقم » حداد كامل .
لكأني بك دائماً على أتم استعداد لمثل هذه الطلبات !
إنه ليسرني أن أصحب مثلك إلى هذه النزهة القصيرة !
— النزهة !

قالها الفتى وهو ينظر إلى صاحبه شزرراً ، ولكن
صاحبه تجاهل النظرة وجذبه من يده :

— تعال نؤدى معاً هذا الواجب . . .

— نحو من ؟ . . .

— نحو الفقيد المرحوم زوج بنت مدام شارل !

— ومن هي أولاً مدام شارل ؟

— هي والدة أحد زملائي في المصنع .

— وما ذنبي أنا ؟

— ذنبك أنك صديقي ! فلتتحمل ما أتحمل . لا شيء

يشغل على نفسي مثل المشى صامتاً خلف عربات الموتى !

سنتحدث على الأقل سويا في شئوننا . . بل في شئونك أنت ، إنى أعدك وعدا صادقا بالحديث طول الوقت عن فانتتك ذات الأنف الذى تقول إنه غير فى نظرك المثل الأعلى للأنف الجميل ، وقلب فى رأسك كل الصور والأوضاع التى كنت قد تخيلتها للجمال !

— نعم ، نعم . . . لقد كنت أعتبر الجمال . . .

وانطلق الفتى يتكلم متحمسا . . . ولم يفتن إلى أندريه وقد قاده من ذراعه ونزل به إلى إحدى محطات المترو ، وابتاع له تذكرة فى الدرجة الثانية ، وأركبه قطارا مرقق بهما فى جوف الأرض مروق لسان محسن بذلك الحديث اللذيذ . وابتسم أندريه آخر الأمر فى خبث ابتسامة من يقول فى نفسه : « إن معى الآن مفتاح قياده فلا لوجن له » بها « يتبعنى صاغرا بغير أن يشعر إلى أقاصى الأرض ! . . »

دقت نواقيس كنيسة « سان جرمان » احتفالاً
باستقبال الجثمان . ولم تكن الجنازة قد وصلت بعد .
ولم يكن بباب الكنيسة أحد غير محسن . فقد تركه
أندريه عند الباب وذهب يشتري مظلة ، يتقيان بها
المطر أثناء السير في الطريق من الكنيسة إلى المقبرة .
وأبطأ أندريه على صديقه . وبدأت طلائع الجنازة .
واشتد دق النواقيس . ثم فتح باب الكنيسة على
مصراعيه واقتربت عربة الموتى تهادى حاملة التابوت
ثاويًا تحت باقات الزهر ، وخلفها المشيعون تحت
مظلاتهم . ووقفت العربة . وحمل التابوت إلى داخل
الكنيسة . ومرت أفواج المشيعين بمحسن في ملابسه
السوداء الكاملة فانحنوا له حاسبين إنه من أهل الميت
الأقربين . هنا أدرك الفتى حرج موقفه . فأسرع واندس
في فوج الداخلين ، قبل أن تقع عليه أعين أهل الميت
الحقيقيين والناس تنحني له ، فيظنون بشأنه الظنون .

دخل محسن الكنيسة . ولم يكن قد دخل كنيسة
قط . ولا حضر صلاة ميت من أموات النصارى .
ولا رأى ما يجرى فيها من المراسيم ولا ما يتبع من
الطقوس . فأحس برهبة . وخیل إليه أنه باجتيازه العتبة
قد ترك الأرض وارتقى إلى جو آخر ، له غير له وله نوره .
هنا أيضاً عين الخشوع وعين الشعور الذى كان يهز نفسه
كلما دخل فى القاهرة مسجد السيدة زينب . هنا أيضاً
عين السكون ، وعين الظلام فى الأركان ، وعين النور
الضئيل الهائم كالأرواح فى جو المكان ! إن بيت الله
هو بيت الله فى كل مكان وكل زمان .

وضع التابوت فى الصدر وأضيئت حوله الشموع .
وأخذت أصوات الرهبان تعلو مرتلة الصلاة على أنغام
الأرغن . ثم تقدم الناس فى صف طويل نحو التابوت
يمرون به ، الواحد تلو الآخر ينضحونه بماء مقدس من
« ققم » فضى . ومشى محسن فى الصف ذاهلاً خائفاً أن

يحدث صوتا على أرض الكنيسة ، وانتبه قليلا فرأى
القمامة يامع في أيدي من أمامه في الصف . يرسم به
الواحد علامة الصليب وهو ينضح به الميت ، ثم يسامه
في صمت إلى من خلفه ، وراقب الفتى هذا الفعل يتكرر
أكثر من خمسين مرة وهو يحسب ألف حساب لنوبته
وأذهلته الرهبة . فما راعه إلا القمامة يسلم اليه ممن أمامه
فتناوله بيد ترتجف ، ولوح به نحو التابوت راسما في
الهواء علامة لا يدري من فرط اضطرابه أدلت على
صليب أم على هلال . ثم نضح التابوت على نحو خشى
معه أن يكون قد أكثر فبلل الغطاء . ولكنه فرغ من
مهمته على أى حال . فتنفس الصعداء ومد يده بالقمامة
يسامه إلى من يليه . فلم يجد خلفه أحدا . كان هو
الأخير في الصف . يا للكارثة ! ما العمل ! و حار وارتبك
بهذا القمامة في يده لا يدري ما يصنع به ؟ وقد اشتغل عنه
القوم بتعزية أهل الميت الواقفين عند باب الخروج .

وتصيب العرق بارداً من جبينه . إنه يحمل في يده شيئاً مقدساً . كيف يتصرف إذن من تلقاء نفسه في شيء مملوك لله داخل بيت الله ! إنها لمسؤولية عظيمة ! ولحمة أحد القسيسين في هذا الموقف فبادر إليه وحمل عنه العبء . فانصرف الفتى وكأنه يقول في سداجدة : « ما أقوى كواهل أولئك الرجال الذين يتحملون كل تلك التبعات في إدارة ممتلكات السماء ! » . وأسرع محسن إلى اللحاق بالصف كي يعزى أهل الميت فما كاد يتقدم إليهم في ملابسه السوداء حتى حملوا فيه كأنما هم يتذكرون أو يتساءلون عن هذا الصديق الحميم الذي أتى يشاركهم مصابهم في ثياب حداد كاملة لم يرتد مثلها بعض أقارب الميت ولا ذويه ! وأعيانهم التذكروا فهم محسن ما يجول بخاطرهم فلفظ سريعاً بضع كلمات غير مفهومة وانطلق إلى الخارج . . . فوجد أندريه واقفاً تحت مظلة جديدة بين بقية المشيعين المنتظرين خروج التابوت .

ورآى الفرنسي صديقه فابتدره محمّلقا فى وجهه :

— مالك أصفر الوجه !

فلم يجب محسن بغير قوله :

— اذهب وادفن زميلك . أما أنا فإنى أنتظرك

فى قهوة « الدوم » .

واختفى سريعا قبل أن يترك لأندريه وقتا

لل كلام ...

جلس محسن وصاحبه أندريه فى قهوة « الدوم »

بحى مونبارناس ، وهى ملتقى أهل الفن من مصورين

ومثالين وشعراء . وهى من أجل ذلك ذات شهرة

وصيت . وهبط فى ذلك العام سعر الفرنك الفرنسي ،

فهبط باريس سائحون كثيرون أغلبهم من الأمريكان ،

انتشروا كالذباب فى كل مكان ...

وطلب محسن قدحا من عصير البرتقال ، جعل

يرشف منه في بطاء من خلال ذلك العود المجوف من
القش ، وطلب أندريه كأساً من «البرنو» أخذ منه
جرعة ثم التفت إلى صديقه قائلاً :

— أتدري أين دفنوا زوج بنت مدام شارل ؟

— لا أريد أن أعرف أين دفنوه .

— لماذا ؟

فضاق محسن ذرعاً :

— وبعد ؟ أخبرني بحق ربك ، متى تعتقني من هذا

المدعو زوج بنت مدام شارل ؟ ! أما كيفاك أني صليت

على روحه في الكنيسة ، ونضحته من القمقم

المقدس ! .. آه ، إني لن أغتفر لك هذا التهاون منك !

إنك كنت تعرف أني داخل هذا الحرم القدسي ولا

تقول لي حتى أعد نفسي ...

فابتسم أندريه وقال :

— أيها العصفور الشرقي ! تعد نفسك لدخول

الكنيسة ! ما معنى هذا ؟ ... إنا ندخلها كما ندخل
القهوة . أى فرق ؟ هناك محل عام وهنا محل عام . هناك
الأرغن ، وهنا الأوركستر ...

فلم يلتفت إليه محسن وهمس كالمخاطب لنفسه :
— بل هناك السماء ! وليس من السهل على النفس
الصعود فى كل لحظة ... إنه لمجهود ! ...

فلم يبد على الفرنسى أنه فهم عن محسن . ولم يكلف
نفسه عناء سؤاله ، ورفع كأسه وجرع جرعة أخرى .
ثم أشار بطرف عينه إلى أمريكية حسناء جالسة مع
أسرتها على مقربة منهما ، وهى لا تفتر عن النظر إلى
من حولها من فنانين ، ووقعت عينها آخر الأمر
على محسن فى ثيابه السوداء ، فغمزت من معها وهمست
إليهم بكلام .

ولحظ محسن نظراتها فقال لأندريه فى صوت

منخفض :

— لماذا يرمقوني هكذا ؟

— يحسبونك من أهل الفن بهذه القبعة وهذه

الملابس .

— إنهم ينظرون إليّ كما ينظر الإنسان إلى طائر

غريب ! أو لم يروا فناً قط ؟ يخيل إليّ يا أندريه أن

هؤلاء الأمريكان قوم خلقوا من الأسمنت المسلح ،

لا روح فيهم ، ولا ذوق ، ولا ماض . إذا فتحت صدر

الواحد منهم وجدت في موضع القاب « دولار » . إنهم

ليأتون إلى هذا العالم القديم حاسبين أنهم بالذهب

يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقاً ، ولبلادهم ماضياً ! ..

ولم يظهر على أندريه أنه أصغى إلى كلام صديقه

كله . فلقد كانت عيناه تتبعان الأمريكية :

— أهذه بربك من الأسمنت المسلح !

— لا تطل إليها النظر هكذا . وإلا قلت لزوجتك

« چرمين » !

فهز الفرنسي كتفيه ومضى في إظهار إعجابه :
— تأمل هاتين العينين الزرقاوين كأنهما في لون
زرقتهما بحيرتان من بحيرات الجنة !

— الجنة ليس فيها بحيرات من ملح !
— أيها المقتون ! إنك لا ترى غير فاتنتك التي
لا تعرف اسمها !!

فنظر محسن إلى الفضاء باسمّاً ساجحاً بخياله ثم قال :
— أعرف صوتها . وهذا ليس بالقليل . ليلة الأمس
في الأوبرا

— كنت في الأوبرا ؟
— اطمئن . أعلا التياترو . سمعت صوتها . أغنى
صوتاً كصوتها . كل صوت جميل هو صوتها . سمعته يغنى :
« قلبي يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار »
« لقبلات الصباح ! »

الفصل الثاني

جلس محسن كعادته كل صباح إلى مائدة المطبخ
في المنزل الذي يقطنه ، آمناً شر البرد القارس في
الطريق ، مستعداً نقر المطر على زجاج النافذة كأنه نقر
أطفال على طبول صغيرة وقد وضع على رأسه قلنسوة
مصرية من « الكستور » وفتح أمامه كتاب الجمهورية
للفيلسوف أفلاطون وأمسك سكيناً جعل يقشر بها
بصلاً . وبين آن وآن يلتفت إلى طفل في الرابعة يلعب
في أحد الأركان متقلداً سيفاً زائفاً مما يلعب به الأطفال ،
ومصوباً مدفعاً صغيراً من الصفيح نحو أعداء وهميين
من الألمان . وكان الطفل يثرثر ويصيح موجه الكلام
تارة إلى أعدائه وتارة إلى جدته العجوز الواقفة أمام النار
تهيء مرقاً من لحم البقر وهي لاهية عنه وعما يقول .
وأخيراً التفتت إليه وسألته :

— ألسـت جوعان يا چانو؟

— كلا . إني أحارب «البوش» .

فقالت جدته في تحمس :

— نعم . قاتل «البوش» يا چانو ! ولا تبق منهم

أحداً على وجه الأرض !

فرفع محسن رأسه مستغرباً هذه الكلمة :

— «البوش» ؟ من هم «البوش» ؟

فابتسمت العجوز وقالت :

— هم الألمان . نحن عامة الفرنسيين نطلق عليهم

هذا الأسم .

وصاح چانو :

— نعم هم الألمان . جدتي ؟ لماذا هم يسمون بالبوش ؟

فتفكرت المرأة قليلاً ولم يسعفها علمها المحدود :

— لست أدري .

وأسرعت فغيرت مجرى الحديث ناظرة إلى محسن

مبتسمة لانهما كه في عمله :

— « براقو » يا ميسو محسن ! إنك لبارع حقا

في تقشير البصل !

فقال محسن دون أن يبدو في نبراته تهكم أو تلميح :

— براعتك ياسيدتي في الغناء والعزف على البيانو !

فابتسمت ولم تدرك مراده :

— يا لك من فتى متملق !

وأخفى محسن في نفسه ابتسامة لذكرى ذلك اليوم

الذي هبط فيه هذا المنزل . فقد أرادت هذه المرأة أن

تدخل على نفسه السرور وتملاً المنزل بهجة ومرحاً ،

فأرسلت في طلب « چرمين » زوجة ابنها وأجلستها إلى

البيانو وأخذت هي في الغناء بصوت لم يعرف له محسن

أصلاً من الأصول . وإذا الغناء ينتهي بصيحة ظنها محسن

داخلة في تركيب النغم ، ولكنها كانت صيحة شجار

دب فجأة بين الحماة وزوجة ابنها ، واستفحل أمر الخلاف

بينهما إلى حد أزعج الفتى . فما راعه إلا غطاء البيانو
يغلق في عنف . وزوج الابن تقوم إلى قبعتها ومعطفها
فتضعهما عليها وضعا في غضب وتذهب نحو الباب تريد
الانصراف ، وانقلب المنزل في لحظة شر منقلب ، وامتلأ
لا بالمرح والبهجة والسلام ، ولكن بالكدر والكرب .
وما من سبب ، طاهر استطاع محسن أن يستخلصه
لكل هذا . منذ ذلك اليوم ومحسن يحسب حسابا
لعزف العجوز وغنائها . وإذا عزفت مرة أو غنت رفع
عينيه إلى السماء وسأل المولى حسن الختام .
التفتت العجوز مرة أخرى إلى محسن وإلى البصل
ثم قالت باسمه :

— لا بأس ! لك عندي ثمن عمالك هذا يا مسيو
محسن . أتدرى ما هو الثمن ؟ سأعزف لك أغنية على
البيانو ؟

فلم يملك محسن نفسه :

— أتسمين هذا ثمننا ؟ ! —

ثم استدرك وقال سريعا :

— أية أغنية ؟ ينبغي أن نتفق على الأغنية أولاً .

فقالت المرأة :

— الأغنية التي تحبها ، والتي قلت لي إنك سمعتها

في دار الأوبرا .

فاهتز محسن في كرسیه وأنشد على الفور مطلع

أغنية « سان سانس » :

« قلبي يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار

لقبيلات الصباح . ! »

فنظرت إليه المرأة في عجب :

ما أشد حبك للموسيقى !

— إنها في دمي .

قالها محسن في بساطة تنم عن حقيقة عميقة ، وفي

لهجة تشير عن غير قصد إلى ماضيه بأكمله ! ثم تناول

السكين واستأنف تقشير البصل ، وهو يصنع في
أعماق نفسه إلى أنغام تلك الأغنية ليلة أنشدتها « نينون
قالان » الشهيرة في أوبرا باريس منذ شهرين . ليلة جميلة
عجيبة لا ينساها محسن ، فقد رأى فيها ما لم ير من قبل
وسمع ما لم يسمع ، ولقد أراد في تلك الليلة أن يتشبه
لأول مرة بالموسرين فاستأجر مقعداً في صفهم وهو
لا يعلم أن ذلك يستلزم لبس ثياب السهرة الرسمية ،
ونبهته العجوز ، فحار في شأنه إذ ليس لديه هذا اللباس ،
ورأى آخر الأمر أن يلجأ إلى الحيلة ، فاشتري صدر
قميص أبيض منشى ربطه على صدره رباطاً وثيقاً
بخيوط « الدوبارة » ثم أتى بأحكام منشاة ربطها كذلك
حول معصميه ، وارتدى ملابسه العادية السوداء فوق
هذا كله والعجوز تنظر إليه وتقول : « لو أنه حدث
الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك عجباً :
إنساناً مربوطاً بخيوط من الداخل » كطرد » البريد .

وحان الوقت ودخل محسن الأوبرا فما تمالك أن وقف
مشدوهاً : أية عظمة وأى ثراء يشعرا بالدار !
وأى أنوار !

وأدرك من فوره معنى مجسم لكلمة « الحضارة
الغربية الكبرى » التي بسطت جناحيها على العالم !

نعم ، ما كل هذا البذخ والإغراق في الترف إلى
حد الكفر والفجر والاستهتار ، وكأنما جاء القوم وأغلبهم
من سراة الأمريكان إلى هذا المكان يتساجلون الغنى
والسعة وكبرياء المال أكثر مما جاءوا يلتمسون لذة
التطهر والخضوع في حضرة الفن ، أو لذة العودة إلى
الإنسانية والروح على يد الموسيقى ! وصعد محسن سلم
الأوبرا المشهور وهو يتصبب خجلاً بين الصاعدين
من أصحاب « الفراك » الثمين ، والقبعة العالية ، والقميص
المنشئ « الحقيقي » ! والسيدات الأنيقات في أثواب
الليل البراقة ، والجلي المتألقة كأنهن الشموس في عالم

الماس ، وخيل إلى محسن أنه قد دخل بين هؤلاء القوم
بالغش والتدليس ، وأن هذا السلم الشهير يأنف من حمله
وقد مرت عليه السنون وهو يحمل الجاه المال في العالم
قاطبة ، ولعله المكان الوحيد الذي لا شك قد وطأته أقدام
جميع الملوك ، فليس يبعد أن يغضب السلم في هذه اللحظة
ويزلزل بمحسن صائحاً : « لم يبق على آخر الزمان إلا أن
يطأني بنعله القديم مثل هذا الصعلوك القادم من الشرق »
وتصور محسن أن خيوطه قد تحل لسبب من الأسباب
فيسقط الصدر المنشي على الرخام وسط أولئك القوم
المترفين فتكون الفضيحة ! كانت ليلة أحس فيها الحرج
والمذلة . وعلم أن ثمرات الفن إنما هي أيضاً حق ووقف
على طبقة الأغنياء . وأن الطريق إلى الاستمتاع الروحي
ينبغي أيضاً أن يفرش بالذهب ! وتمثلت له تلك الجمهورية
الجميلة التي تخيلها الشعراء والفلاسفة في كل زمان :
جمهورية لا تعرف الفقر ولا تعرف الغنى لأنها لا تعرف

الذهب . وتعرف السلام لأنها لا تعرف الجشع . الكل
فيها مثل فرد واحد . الكل فيها يعمل . والكل يأكل .
والكل يقرأ وينعم . والكل يلعب ويعرج . أما الذهب
فإنهم يصنعون منه مصابيح الطرقات وحواضر الجياد .
يا للسماء ! أو مستطاع لمثل هذا الحلم الجميل أن يتحقق
يوماً على هذه الأرض ؟ !

وتنبه محسن قليلاً وترك تأملاته ورفع رأسه فألقى
السكون قد هبط على هذا المنزل الريفي الصغير ، ولم
يسمع إلا صوت لغط الدجاج في الحديقة وصياح الديكة
وهرج الأوز . ثم ثرثرة چانو مخاطباً لعبه بين آن وآن .
وكانما سئم چانو اللعب آخر الأمر ، فنهض ودنا من
المرأة صائحاً في لهجته الصببانية :

— جدتي ! الدجاجة الحمراء تبيض اليوم .

فأجابت جدته في تقطيب :

— چانو ! إني لا آذن لك في الذهاب إلى الدجاج

بمفردك .

— سأذهب مع مسيو محسن .

— لن تذهب اليوم . إن المطر ينهمر في الخارج

والبرد شديد .

— وماذا أصنع الآن ؟

— حارب « البوش » .

— حاربهم .

— قص على مسيو محسن كيف أراد الألمان أن

يدمروا باريس ! ألا تذكر ما قلته لك عن هذا ؟

— كلا . إنني أريد أن أعود إلى منزلنا .

— منزلكم خاوا الآن وليس به أحد . أنت تعلم

أن أباك وأمك لا يرجعان من المصنع قبل الغروب .

دمدم الطفل وتبرم في صوت كالبكاء . ثم مشى في بطاء

إلى حيث يجلس محسن وجعل ينظر إليه ثم مديده

الصغيرة إلى الكتاب المفتوح فوق المائدة وطفق يقلب

صفحاته باحثاً عن صورة فيه . ولم يتحرك محسن . فقد

كان عقله مشغولا ، ونظراته جامدة لا تتجه إلى شيء
بعينه . إنما كان يتساءل في أعماق نفسه : أليس في كل
فرنسا أمهات يلقن أطفالهن كراهية الألمان ؛ ومن
يدري لعل كل نساء ألمانيا يعلمن أطفالهن كذلك
بغض الفرنسيين ؛ ولتكن الأسباب ما تكون ، بأي حق
تستطيع أم أن تنشيء ولدا على العداوة والبغضاء ؟

وانتشرت في المكان رائحة شواء شهى ، فرفع
محسن بصره فألقى المرأة تخرج من الفرن نخذاً من لحم
البقر أخذت تدهنه بالزبد وهي تقول :

— سيحضرون هذا المساء في الساعة السابعة

للعشاء ..

فقاطعها چانو صائحاً في فرح :

— وهل چیزیل مستحضر أيضاً يا جدتي ؟

فابتسمت المرأة والتفتت إلى محسن غامزة بعينها :

— بالطبع ستحضر چیزیل مع والديها .

فتهلل وجه الطفل ، وطفق يثرثر كالبيغاء ، وابتسم
محسن متذكراً أيام الطفولة الأولى !

*
* *

دقت الساعة الواحدة في مصانع « كوربشوا »
القريبة ، فأسرعت المرأة إلى قاعة الأكل وجعلت تهيب
مائدة الغداء ، وسمع صرير مفتاح في الباب الخارجى ، ثم
بدا في الدار شيخ ما كاد چانو يسمع صوت نعله وسعاله
حتى انطلق نحوه يجرى ويصيح : « جدى حضر ! جدى
حضر ! » . ودخل الرجل المطبخ ونشر مظلة في يده بللها
ماء المطر ، ومد يديه وقدميه إلى النار وهو يحادث زوجته
في شؤون المعاش بعبارات يقطعها سعال عنيف . وأصغت
إليه المرأة حتى فرغ من حديثه فقالت له في صوت
اليأس :

— صفوة القول ، ليس لنا أن نأمل في عمل بأحد
المصانع ؛ أليس الأمر كذلك ؟

— الوقت عسير يا عزيزتى . والمصانع لا تريد أن
تمنح أمثالنا القوت ، لأن لديها دائماً حاجتها من العمال .
من أولئك العمال المساكين تسخرهم طول اليوم من
أجل لقمة كالعبيد !

— وماذا نصنع نحن إذن ؟ ينبغي أن تذكر أن
ولديك أندريه ومارسيل لن يستطيعا بعد اليوم إمدادنا
بالمال . فلقد اعتزم أندريه إلحاق چانو بمدرسة داخلية ،
وفي هذا باب جديد للنفقات سيتكلفه المسكين . كذلك
مارسيل يتكلف الباهظ من المال منذ عام فى الإنفاق
على مدرسة چيزيل !

فأطرق الرجل ملياً ثم قال :

— صدقت . ليس لنا إذن من مورد إلا ...
والتفت يمناً ويسرة باحثاً عن محسن بعينين خائبتين
تحت المنظار . وأدركت المرأة مراده والتفتت إلى مكان
محسن من مائدة المطبخ فوجدته خاليا فقالت :

— « عصفور الشرق » صعد إلى حجرته من غير
شك كي يضع كتابه ويتهيأ للغداء . نعم ليس لنا من
مورد إلا ما يدفعه هذا الشاب .

صمت الرجل لحظة متفكراً ثم قال :

— أترى تطول إقامته بيننا ؟

— من يدري ؛ لقد قال لي ذات يوم إنه سيمكث
عامين أو ثلاثة . آمل أن لا يسأم حياة الريف ويفر
إلى باريس .

فظهر القلق على وجه الشيخ . ثم نظر مفكراً إلى
النار المتأججة في الوجدان وقال كمن يدخل على نفسه
الاطمئنان :

— كلا . إنه فيما يبدو لي شاب لا يعيل إلى اللهو
كسائر الشبان .

— حقيقة . إنه لا يحب سوى المطالعة والتأمل
والموسيقى . لكن من يدري إن كان يلبث فينا

كل مدته ؟ ليس لنا إلا أن نأمل .

هز الرجل رأسه وأطرق صامتاً ، ثم دس يده في
جيبه وأخرج لفافة تبغ . وجاء « چانو » يجري وقفز
إلى ساق جده فامتطأها كما يمتطى الحصان وطفق يحدّثه
بجبيء چیزیل المنتظر . . .

الفصل الثالث

فرغوا من الغداء ، وانصرفت المرأة إلى الأواني والأطباق تغسلها في المطبخ وتتأهب للعشاء ، وجلس زوجها على مقربة منها يدخن ويطالع جريدة «الأومانيته» - الإنسانية - المنتشرة في طبقة العمال وأهل انفاقة . وخلا چانو إلى لعبه ومدافعه وحربه الضروس . وأغلق محسن حجرته عليه ، ووضع كتابه أمامه وقرأ صفحتين ، ثم جمدت عيناه على الكتاب ، ولم يعد يقرأ أو يبصر شيئاً ، فقد ترك الحجرة ، وغادر الأرض ، وضل في بحار التأملات ...

وأقبل المساء أخيراً ، ورن جرس باب الحديقة ، فترك چانو لعبه وأسرع نحوه ، ثم لم يلبث أن صاح في فرح : « ماما حضرت ! بابا حضر ! » ، وظهرت امرأة في مستقبل العمر ، جذابة الوجه ، تعلق بها چانو وهي

تدفعه عنها في رفق ، وخلفها زوجها أندريه ، وعليهما
هما الاثنان مظاهر التعب والقوى المنهكة } ومسحت
العجوز يديها في « فوطاة » المطبخ التي ترتديها ، وأقبلت
على زوج ابنها تعانقها وتتأمل وجهها وتقول في حسرة
متصنعة :

— إنك متعبة منهكة القوى يا چرمين !
فأجابت الزوجة وهي تنظر إلى زوجها الشاب :
— إننا لم نخرج من المصنع إلا الساعة .
واتجهت العجوز إلى ابنها تعانقه وتصبح في
حرارة حقيقية :

— وأنت أيضاً يا أندريه ! ما كل هذا الشحوب ؟
} — إننا يا أماه نعمل ثمان ساعات في النهار !
قالها أندريه وهو ينظر إلى أبيه . وكان أبوه
قد طرح الصحيفة من يده واتجه إلى چرمين وچانو
يباسطهما ، فلما سمع قول أندريه صاح في حدة :

— يا لها من وحشية ! إن هذا لم يعد يسمى عملاً .
[إنما هو الاسترقاق] . الرق لم يذهب من الوجود . لقد
أخذ شكلاً آخر يناسب القرن العشرين . ها هي ذى
جيوش من العبيد يسخرها أفراد معدودون من السادة
الرأسماليين !

ورفع چانو بصره إلى جده ولم يدرك سبباً لحذته .
وحانت من أندريه التفاتة إلى الصحيفة الملقاة على
الأرض فابتسم وقال :

— أهذا ما قرأته اليوم في « الأمانيتيه » يا أبتاه ؟

فأجاب الرجل في جد وحدة :

— نعم ، أو ليس هذا هو الحق .

— من غير شك ، هذا هو الحق ، لكن ماذا

نصنع نحن الفقراء ؟

— ينبغي أن تنقص ساعات العمل على الأقل ،

حتى تستردوا بعض حریتکم وبعض وقتکم وحتى

تنقذوا ما بقي لكم من صحتكم ، وحتى نجد لنا نحن العاطلين
عملاً وكسباً نسد به الرمق .

— إنك تجهود نفسك في الكلام يا أبتاه . لقد
قلت الحقيقة . نحن عبيد القرن العشرين . ومتى كان
للعبيد حق الاعتراض أو حق الاقتراح ؟

وأراد الشيخ أن يجيب . ولكن چانو تعامل ونظر
إلى والديه وإلى جدته وصاح :

— لماذا أبطأت چیزیل ؟

وجعل الطفل يجذب ثياب أمه ملحاً في السؤال
فضربت الأم على يده الصغيرة في لطف ، وخلصت
ثيابها منه ، وأرادت جدته أن تقصيه فقالت له :

— إذهب وجيء بمسيو محسن ، فقد أرف
ميعاد العشاء .

وتنبه أندريه فسأل على الفور :

— أين عصفور الشرق ؟ لقد فاتني أن أسأل عنه
ساعة دخولي ؟

— في حجرته .

فاتجه أندريه نحو سلم الدار ثم عاد يقول :

— لست أرى نوراً في حجرته .

فأجابت الأم العجوز وهي تقطع رغيفاً طويلاً
من الخبز :

— إنه في حجرته ، جالس إلى مكتبه . وطالما

يفاجئته المساء وهو أمام كتابه بلا حراك ، وكثيراً
ما أدخل حجرته فأجد الظلام مخيماً عليه وهو جالس جامد
كالتمثال فأدير له مفتاح الكهرباء !

— إنه غريب الأطوار ! إنني أعرفه حق المعرفة !

وعندئذ دق جرس الباب الحديدي ، فرق چانو

من بين الجميع إلى الباب وهو يصيح كالعصفور الصغير :

— چيزيل !

اجتمع الكل حول المائدة . وكانوا قد انتهوا من
العشاء منذ قليل ، ولبثوا في مقاعدهم يتحدثون عن
الاشتراكية ، وقد فشا أمرها في باريس ، وأمست بدعة
من البدع يتبعها الناس مقلدين . وأن الحياة أمست عسيرة ،
وأن سعر الفرنك هوى إلى الحضيض ، وأن فرنسا
الآن فريسة أصحاب المال الأمريكيين ، وأن هؤلاء
الأمريكان قد بلغ من عتوهم واعتدادهم بثرائهم أن الواحد
منهم لا يوقد سيكاره إلا بورقة مالية مشتعلة تحت أنظار
الشعب الفرنسي الفقير ! هنالك صاح زوجها الشيخ
في غيظ :

— يا لهم من أنذال !

ثم استطردت العجوز فجأة ، وكأنها استكشفت
شيئاً :

— لا ريب أنهم هم السبب في غلاء أسعار الخضر
واللحم والفاكهة ؟

وألقت نظرة استفهام على الحاضرين فإذا هي ترى
چانو وابنة عمه چيزيل قد جلسا متلاصقين يأكلان
« الجاتو » ولا يكفان عن الكلام .

ونفذ نصيب چانو فجعل ينظر إلى چيزيل التي
تكبره بعامين وهي تأكل في تودة وكياسة ، وفطنت
الطفلة إلى فيه العاقل وإلى نظراته الطامعة فما ترددت ،
وتقدمت إلى صديقها بكل ما بقى لها . ولم يأب عليها
چانو ، وقبل منها هديتها وطفق يلتمهم ما أعطته وهو
ينظر إليها بعينين باسنتين كلهما اعتراف بالجميل ، لكنه
لم يقل شيئاً . هنالك تجهمت له جدته وصاحت به :
— چانو ! ألا تقول لها شيئاً ؟

فالتفت الطفل إلى جدته في سداجة :

— أقول ماذا ؟

— تقول ماذا ؟ تقول ما يقول الناس عندما

يتقبلون شيئاً من الغير .

— ماذا يقول الناس ؟

— يقولون : « شكراً » ، ولقد علمتك ذلك
ألف مرة .

ثم التفتت إلى والدى الطفل فى قنوط :

— لم يبق لى جلد على تهذيب هذا الغلام . وإنى
أصارحكما القول ، هذا ليس من عملى ، إنما هو من عمل
الأبوين . وما دمتما تتركان لى ابنكما طول النهار وتنصرفان
إلى المصنع ، فلا أمل فى أن ينشأ ولدكما على الخلق القويم .
فأجاب أندريه فى غير اكترات :

— وهل تظنين يا أماء أن هذا من عملنا نحن ؟
هذا من عمل المدرسة ، وسندخله المدرسة ، أما نحن فلدينا
عمل آخر كما تعلمين .

— نعم . المصنع !

فقال الشيخ فى تهكم :

— بالطبع . المصنع !!

فهزت چرمين كتفيها . فقالت العجوز في حدة :
— لا تهزى كتفيك يا چرمين ! إياك أن تنسى
لحظة أهمية تأثير البيت . في زماننا كان البيت هو كل
شئ . آه . لقد ذهب كل شئ طيب بذهاب زماننا !
فقال أندريه وأخوه مارسيل في وقت واحد :

— أين هو البيت اليوم يا أماه ؟

فتأملت العجوز قليلا هذا القول منهما ثم أجابت :
— [صدقتما . لم يعد هنالك بيت وأسفاه ، ولم تعد
هنالك أسرة . الرجل والمرأة في المصنع طول النهار .! ياله
من زمن عجيب !]

فقال الشيخ في قوة واقتناع :

— قلت لكم هذا عصر العبيد قد عاد من جديد !
وانتبه محسن لهذه العبارة ، فامعت عيناه ببريق
غريب . ثم لم يلبث أن استأذن من الحاضرين في

الصعود إلى حجرته ، فأذنوا له باسمين ، فصعد وجلس
إلى مكتبته في الظلام وهو يهمس :

— نعم . لن يذهب الرق من الوجود . لكل عصر

رقه وعبيده !

الفصل الرابع

[لم يمكث محسن طويلاً غارقاً في تأملاته ، فقد
ضرب عليه الباب . فانتبه ، وإذا صديقه أندريه وزوجته
جرمين يصيحان به :

— عصفور الشرق وحيد في القفص !

فقال محسن كالمخاطب نفسه :

— إني دائماً في قفص .

فقال أندريه في ابتسامة خبيث :

— في قفص الحب سجين أيها المسكين !

— نعم سجين .

فقالت جرمين باسمه :

— أتعترف بهذه السهولة ؟

— وما فائدة الإنكار ؟

— ولماذا لا تنطلق حراً مغرداً في فضاء الحب ؟ !

فأسرع أندريه قائلا :

— إنك تطلبين المستحيل . إنه سيظل دائماً هكذا .
إنه حتى الآن لم ينجح حتى في الوصول إلى معرفة اسمها .
فقالت چرمين في ضحكة خفيفة :

— لم يعرف بعد اسمها ! حقاً إنه لمحـب خائب !
فاتخذ وجه محسن لون الجـد الصارم ، وقال في هدوء
وموافقة واقتناع :

— أما إنى محـب خائب ، فهذا صحيح ، ولا محل
للجدل فيه ، وقد أعتنى هذه الخيبة فى كل زمان ومكان !
فقال أندريه سائلاً :

— ألم ترها اليوم ؟

— لم أرها منذ أسبوع ، ولم أنصرف إلى غير
مطالعاتى . إن الكتب تستطيع أن تشغل رأسى حقيقة .
لكن هل الرأس هو كل شىء فى حياة إنسان ؟ آه ! ..
إن أجمل لحظاتي ساعة أقف أمامها أنتظر ، وأنا أعلم أنها

لن تلقى إلى بكلمة تسر خاطرى . مرة واحدة نبذت إلى
عفواً بنظرة وقالت لى : « أما تزال واقفاً ها هنا ؟ أى
مخلوق أنت ؟ » .

— وما قصدها من هذا ؟

— لست أدرى ؟ فسّر هذه الجملة كما تشاء . أما أنا
فقد فسّرتها طبعاً لمصلحتى . إني أحب هذه العبارات
المبهمة التى أتخيل معناها كما أشاء .

— إنك رجل خيالى ، وهذه مصيبتك .

قالها أندريه وهو ينظر إلى جرمين . فأمنت على
قوله برأسها وأضافت :

— من غير شك . لا سبب عندى لفشل محسن
غير أنه خيالى أكثر مما ينبغى . والمرأة لا تقتنص بالخيال ،
بل بالحقيقة .

فلم يعترض محسن وقال فى إذعان :

— وأين هذه الحقيقة ؟ امنحاني هذه الحقيقة التي

أكسب بها عطف المرأة ؟

فقلت چرمين :

— أتريد أن تعلم أين تجد هذه الحقيقة ؟

— نعم أخبريني أين هي ؟ وأنا لا أنسى لك أبداً

هذا الجليل .

— إنها تشرى بالثمن ؟

— كم الثمن ؟ كل حياتي فيما أعتقد !

— بل عشرون فرنكا فقط .

— أتمزحين ؟

— بل أقول جدا . عشرون فرنكا فقط تشتري

بها من حانوت شارع « هوسمان » زجاجة عطر

« هوييجان » صغيرة ، وتقدمها إلى صاحبك في الصباح .

هذه هي كل الحقيقة . أفهمت ؟

فخلق محسن في الفضاء ، كأنما قد كشف عنه

حجاب ، ثم التفت إلى چرمين وقال .

— أحقا ما تقولين ؟

فابتسمت چرمين وقالت في صوت المتعجب :

— يدهشني أن فتى ذكيا مثلك يجهل هذا !

— قارورة « هوييجان » فقط ! ثمها عشرون

فرنكا ! إنك تبالغين يا سيدتي ! إنها لجديرة أن أضع
تحت شبا كهها قلبي كله ! .

— شبا كهها !

— لن أقدم إليها شيئاً زهيداً من هذه الأشياء !

— وأين صاحبتك يا محسن ؟

فأجاب أندريه في الحال عن صديقه باسمًا :

— قلت لك يا چرمين إنه لا يعرف من هي ، ولا

يدري عنها شيئاً .

sans qu'elle

فقال محسن دون أن يخرج عن هدوئه :

— هذا صحيح .

وازداد عجب چرمين فقالت تسأل الفتى :

— يا للغرابة ! وأين تراها إذن ؟!

فأجاب محسن :

— أراها في شبا كهها ، تشرف على الناس بعينين

من فيروز ، وهم يرون أمامها الواحد تلو الآخر ، من

كل جنس ، ومن كل طبقة . فيهم الفقير مثلى ، وفيهم

الموسر مثل ملك من الملوك . نعم . يمر بين يديها كل

يوم هذا الموكب ، وهى تبسم من شبا كهها بين آن وآن ،

دون أن يعرف أحد سر قلبها .

فنظرت چرمين إلى محسن مليا ثم قالت :

— أهذه المرأة في باريس ؟ أم في كتاب ألف

ليلة وليلة !

وقال أندريه ضاحكا :

— وهذا الشباك أين هو ؟ في أى قصر سحرى ؟

وأردفت جرمين ضاحكة :

— وهل توجد حقاً في باريس تلك المرأة التي يمر
بين يديها الناس وهي في الشباك؟!
فأجاب محسن في هدوء :
— في شباك التذاكر .

فصاحت جرمين وقد فهمت مراده :
— آه ... هي عاملة في شباك تذاكر ...
— تياترو الأوديون !

قالها محسن كالخالم . وضحكت جرمين ، وضحك
أندريه ثم قال :

— أسمع نصيحتي يا محسن ! اذهب غداً وقدم
إليها باقة من الزهر ، ثم ادعها إلى العشاء في مطعم من
المطاعم !

فتفكر محسن قليلاً ثم قال :

— وإذا لم تقبل منى باقة الزهر!؟

فقلت جرمين من فورها :

لا يوجد امرأة في باريس ترفض باقة من

الزهر !

الفصل الخامس

— مدموازيل ! ألم يأت بعد ؟

— من ؟

— ذلك الفتى الذى يضع المعطف الأسود فوق
منكبيه .

— لست أدري يا كلوتيلد . لا أظن أنى رأيته
اليوم ...

— إنى أراه دائماً جالساً فى القهوة التى أمامنا يطيل
النظر إلى هذا الباب .
— لعله مجنون .

وعندئذ أقبل رجل فى سن الشباب جميل الهيئة ،
دخل توا على عاملة شباك التذاكر من ذلك الباب الذى
كتب عليه بخط كبير : « الدخول ممنوع » ، فما

إن رآته كلوتيلد العجوز حتى تناولت مكنستها وهرولت
إلى عملها وهى تهمس :

— « الرئيس » .

— من هو المجنون يا سوزى ؟

قالها ذلك الرجل بعد أن ألقى على الفتاة الجميلة نظرة
لا يدرك معناها غيرها . فهزت كتفها ولم تجب . فألح
الرجل فى شدة وغضب :

— قلت لك أريد أن أعرف من المجنون ؟

فرفعت رأسها ونظرت إليه بعينين متسعيتين فى
لون الفيروز ، تزينهما أهداب طويلة شقراء . ثم قالت
فى صوت لا يدرك معناه إلا هو :

— لست أنت المقصود على أى حال .

— من إذن ؟

— فتى آخر كنا نتحدث عنه .

— فتى !!

— لست أعرف بعد من يكون ، اعتاد أن يأتي
كل يوم إلى هذا الشباك ، فينتظر حتى ينفض الناس
ويخلو المكان ، فيتقدم إلى قائل : « بوجورمد موازيل ! »
فأرد عليه التحية . فيقف يطيل إلى النظر صامتاً ، ثم
يتحرك قائلاً : « أورقوار مدموازيل ! » ، ويمضي
لشأنه . !

— أحد المعجبين من غير شك !
قالها الرئيس الشاب في نبرة غريبة . فأجابته
سوزى على الفور :

— بل مجنون . هذا كل اعتقادي .
— حسبتك تعينني أنا .
— أنت ؟ ! لا يا عزيزي هنري . أنت العقل بعينه .
أنت أعقل مما ينبغي . آه يا سيدي . لقد تبين لي أنك
أعقل مما كنت أتصور . هنيئاً لك !
قالت سوزى في إطراق وفي شيء من الغضب

المكتوم . وأطرق هنرى أيضاً ، وجعلت يده تعبت
بدفتر التذاكر على حافة الشباك . وطال بينهما صمت
قطعته كلوتيلد حارسة المقاصير ، صائحة من جوف
مقصورة :

— ميسيو هنرى .! أنعد مكان الأوركستر ؟
فانتهرز هنرى الفرصة ليخرج من موقفه . وأسرع
إلى قاعة المسرح وتوسط صفوف المقاعد وصاح :
— أيتها الحمقاء كلوتيلد ! الليلة رواية «الأرليزية» !
أتريدن « الأرليزية » بغير موسيقى ! أعدى محل
الأوركستر حالا أيتها الشمطاء !

وعاد السكون إلى المكان . وأرادت سوزى أن
تعود إلى تلاوة قصة « لاجارسون » التى كانت تشغل
وقتها الخالى بقراءتها كلما خفت وطأة العمل . لكن شيئاً
فى رأسها حال بينها وبين الكتاب ، فجعلت تنظر فى فضاء
المكان دون أن تثبت بصرها فى شيء بعينه [وحانت

منها نظرة عارضة إلى تمثال فولتير الرخامي أمامها في
الردهة ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المشهورة ،
فحركات أهدابها قليلا وكأنما راعها شيء منه ، لكنها
تمالكت وهزت كتفها وأخرجت من حقيبة اليد
بجانها علبة أنيقة الشكل ومرآة صغيرة وجعلت تظلي
وجهها الجميل حتى ظهرت كلوتيلدا تقول في غضب :
— أسمع شتائم !

فقالت سوزي في غير اكتراث :

— من ؟

فأجابت العجوز وقد استندت إلى مكنتها :

— « الرئيس » ! أما رأيت سوء خلقه اليوم ؛ إنه

لا ريب قد حدث بينكما شيء يامدموازيل سوزي ، إن
خلقه لا يسوء إلا يوم يكون الأمر بينكما ...

فتنهدت سوزي تنهداً خفيفاً ، وابتسمت ابتسامة

فاترة ، ولم تجب .

لبث محسن في مجلسه من المقهى الذي أمام
الأوديون يحتسى قدحاً من القهوة ممزوجة باللبن ويتأمل
تلك الأعمدة العظيمة التي يقوم عليها بناء المسرح الفخم .
ولا تبرح عيناه الباب كأنما هو باب فردوس لا يدري
أهو من داخله أم كتب عليه أن يظل دونه من الضالين .
ولم يقطع عليه تأمله غير حركة فتى وفتاة من أهل باريس
يتعانقان خلفه ويقبل أحدهما الآخر علانية كما اعتاد
الباريسيون أن يفعلوا غير حافلين بعاذل أو رقيب .
فازور محسن عنهما برأسه غير راض أن تعرض العواطف
هذا العرض في الشوارع والطرقات فتبتذل وهي التي
ينبغي لها أن تحفظ في الصدور كما تحفظ الآلى في
الأصداف . وبينما محسن في تأمله إذا كف قد وضعت
على كاهله فالتفت فرأى أندريه يبسم له ويقول :
— ماذا تصنع هنا أمام الأوديون أيها الفتى

الشارد ! ؟

- أنت؟ دائماً أنت ورأى هكذا !
— ماذا تفعل هنا؟ أجب وأسرع !
فتردد محسن قليلا ، ثم أشار إلى المسرح قائلاً :
— إنى أتأمل هيكل الفن .
فغمز أندريه بإحدى عينيه وقال :
— بل قل هيكل الحب .
— كلاهما واحد . أحدهما حالٌّ في الآخر ، كالنور

في المصباح .

— أهى هنا ؟

- هى هنا ، ورواية « الأريزية » هنا . آه !
ما أجملها وما أجمل الرواية ، نثراً وموسيقى ؟ هنا
في هذا الهيكل قد امتزجت صورتها في نفسى بصدى
أنغام « الأترمتزو » ورقصة « الفراندول » !
— ألم تقدم إليها بعد باقة الزهر أو عطر الهويجان !
— لازهر ولا عطر . إنها أعظم قدراً عندى وأجلّ

خطراً من أن أقدم لها شيئاً أو أن أوجه إليها كلاماً !
فبدا العجب في وجه الفرنسي . وخيل إليه أنه
يسمع الغازاً وطلاسم لا قبل له بفهمها . فhez كتفيه
مريحاً نفسه :

[— تلك ولا شك فلسفة شرقية !]

— وأنت كيف عثرت على ؟ وما حضورك هنا
الساعة ، والعمل في المصنع قائم على قدم وساق ؟ !
— لا مصنع اليوم ولا قدم ولا ساق . ألم تقرأ
صحف الظهر ؟ قد أضرب العمال في مصانع « كوربثوا »
أضربنا جميعاً إلى أن يعدوا بالنظر في مطالبنا . وأما
العشور عليك ومعرفة مقرك الآن فليس من العضلات .
وابتسم أندريه في خبث ، ثم مديده إلى صديقه
قائلاً :

— والآن ، هلم بنا . !
فنظر إليه الفتى دهشاً قلقاً :

— أين ؟

— نحضر اجتماع العمال .

— وما شأنى أنا والعمال ؟

— نزهة قصيرة .

— نزهة ! آه ياسيدى ! بعض عطفك وكرمك !

أخبرنى متى ترجمنى من هذا الذى تسميه : « نزهة

قصيرة ! » .

— يسرنى دائماً أن تذهب معى ...

— وأنا يسرنى دائماً أن تذهب أنت وحدك .

دعنى الآن فيما أنا فيه . إنى كما تعلم لست من العمال

العاطلين . إنك لترى أن لدى عملاً ...

— فى أى مصنع ؟

— هنا ...

وأشار الفتى بيده إلى المسرح . فضحك أندريه

وقال :

— أتسمى هذا عملاً؟! آه.. أيها العاشق الشرقى
الذى ينفق أيامه فى قهوة يحلم ، وحبيبته على بعد خطوتين !
سمع الفتى ذلك من صديقه الفرنسى فانتفض قائماً ،
وقد لمعت فى رأسه كالبرق صور من الماضى . فرآى
قهوة : « الحاج شحاته » فى حى السيدة زينب بالقاهرة
وذكر جلوس عمه اليوزباشى « سليم » الساعات الطوال
ببابها ، شاخصاً إلى دار محبوبته « سنية » ، آملاً أن
يلمح لون ثوبها الحريرى الأخضر خلف « المشربية » .
وأدرك محسن لفوره أنه يصنع الآن فى شارع
« الأوديون » عين الذى كان يصنع سليم فى شارع
« سلامة » منذ سنوات . أهى المصادفة ؟ أم أن هذا
شئ فى دمه ؟ لا يدرى ، غير أنه يحس قوة ترغمه على
الجلوس قرب مكانها ، وأنه يجب هذا القرب لذاته .
وعاد محسن فجلس . واتسعت حدقتا الفرنسى
دهشة وصاح :

— ألا تستطيع أن تبرح هذا المكان ؟

— إنك ترى بعينيك أنى لا أستطيع .

فأشار أندريه إلى « التياترو » بأصبعه :

— ولماذا لا تذهب إليها فتفاتها بما فى نفسك ؟

— أأنت مجنون ؟!

— أنا المجنون ؟؟!

لفظها الفرنسى وهو ينظر إلى محسن ولا يجد

كلمات يصفه بها . ومضى الفتى يقول :

— يا عزيزى أندريه . ما زال فى رأسى قليل من

الإدراك يكفى لإفهامى على الأقل أن مثل هذا الجمال فى

شباك مفتوح للجمهور لا يمكن أن يبقى حتى الآن فى

انتظار قدوم هذا الصعلوك الشارد الذى هو أنا !

— تريد أن تقول إن لها عشاقاً ؟

— ألف عاشق وعاشق ، وقد لا يحصون عدا ،

كل من حولها يحبها ، ذرات الهواء ، وهوام الفضاء ،
ونجوم السماء !.

— كفى خيالا وشعراً . تكلم في الواقع . هل
أخبروك أنها تحب أحداً بعينه ؟

— إنها ياسيدى محبة محبوبية .

— كيف عامت ؟

— بالفراسة .

ففضب معين الصبر من صدر الفرنسي وصاح :

— الفراسة أيها اللكع ؟ وهذا بابها ، وهذه هي

جالسة ، أكاد أراها من هنا ! أقسم أنى لم أر مثل هذا
في حياتى . . .

فلم يحفل محسن لصياحه ، ولم يبد حراكا . غير أنه
أرسل نظرة إلى باب المسرح ، وخطر له طيف « سليم »
مرة أخرى . وهو اليوم زوج لإحدى قريباته وأب
لولدين صغيرين . وقد شغل وظيفة عسكرية في مصلحة

خفر السواحل . وأصبح ذا جسم ممتلئ و « كرش
محترم » ، أما شارباه القأمان فقد هوت بهما الأيام .
واتخذت حياة ذلك الرجل الشكل المألوف في حياة
الملايين من هذا النمل البشرى ، وقد ذهبت ساعات
جلوسه في قهوة شحاته ولم يبق لها أثر ظاهر في حياته .
طنى الزمن بحره الطامى على أحلام الماضى ، واختفت
صورة « سنية » من رأس « سليم » ومع ذلك ، فهو إن
بحث اليوم في أغوار قلبه عن خير ساعات حياته لما وجد
أحلى ولا أشهى من تلك اللحظات التى كانت تطير هباء
في جلوس طويل بين اليأس والرجاء ، شاخص الأبصار
إلى نافذة سنية . ذلك الانتظار الحلو المر ، انتظار شيء
جميل يرجو أن يحدث ولن يحدث ، هو كل ما ظفر به
قلب « سليم » ، وكل قلب على هذه الأرض ، من
إحساسات عليا . ماذا يهم ما يتم من لقاء بعد ذلك بين
حييين ؟ إن خفقة القلب التى كانت تهز كل كيان

« سليم » كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية ،
وذلك الصبر الطويل على القهوة في انتظار هذا الخيال ..
هو كل جمال الحب ..

واسترسل محسن في تصوراته وتذكاراته ، ففسى
أندريه ، وأدرك القنوط الفرنسي فرفع يده في حركة
عصبية :

— لا . حقيقة لا . إني لا أستطيع أن أنفق عمري
جالساً هكذا . إن الزمن شيء لا تعرفونه أنتم معشر
الشرقيين ، ولا يعنيكم أمره !
— لقد تحررنا منه .

فحملق أندريه في محسن ملياً ثم صاح :
— آه ، أيها الشرقيون !.. أأنتم بلهاء أم أنتم حكياء ؟
هذا ما يحير ...

— تلك عبقريتنا !

الفصل السادس

يروى الجاحظ أن رجلا دميما ، تزوج اعرابية
حسنة هامت به فسئل في ذلك ، فقال : « قرب الوساد
وطول السواد » !

ذكر محسن تلك الكلمة وهو جالس يرمق أعمدة
« الأوديون » من مكانه بالقهوة ذات صباح . فاهتز في
كرسيه ولمعت عيناه فرحاً . فقد وجد السبيل الذي
يسلكه مثله . إنه يعرف نفسه ؛ فهو كصندوق مقفل
غير مطعم بذهب ولا بفضة ، وغير موشى بألوان ولا
برسوم ، ولا تبهر هيئته ولا تغر ، ولكن طول الجوار
قد يحمل الصادف عنه على النظر إليه واستطلاع ما فيه .
وهو إن فعل فلا شك واجد في قلبه بعض تلك الآلى
التي يبحث عنها الناس . ولكن كيف يدنو منها دنوا
متصلا وهو غير قدير على أن يذهب إليها الآن ليقربها

السلام، وكيف يجد « قرب الوساد وطول السواد » مع هذه؟ وهو لا يستطيع أن يظفر من وقتها بخمس دقائق؟ وتذكر عند ذاك شارع سلامة بالقاهرة، حيث كان يقطن منذ أعوام إلى جوار « سنية ». حقا لو لم تكن يد القدر قد وضعت مسكنه إلى جانب مسكنها لما كان لتلك الفتاة مكان في حياته يوماً ما. نعم. لا شيء اليوم يستطيع أن يخرج من هذا اليأس غير قرب السكن والجوار « طول سواد الليل وبياض النهار »! ولكنه لا يعرف أين تسكن؟ وكيف تسكن؟ أبغفردها؟ هذا هو الحلم الذهبي. لا. هذا مستحيل. إن القدر لأقسى من أن يظفره بهذا الحلم. إنها لا شك تقطن مع أهلها! ومع ذلك ماذا يعنيه من هذا الأمر. إنه راض بالقليل. يكفيه منها مجرد الشعور في كل حين أنها هي جارتة. بقي عليه أن يعرف مقر سكنها وهذا ميسور. ما عليه إلا أن يتبع خطاها وهي خارجة من المسرح

في المساء : هنا وثب محسن وكان الأزمة قد انفرجت .
 فهو منذ اليوم لن يتخذ القهوة مطاراً لخيالاته المحلقة
 بلا جدوى فوق هذا المسرح . ولكنه سينشط ويسير
 في طريق الأمل على هدى من أمره . وفرك يديه
 ليدفئهما من البرد ، ومسح معطفه وقبعته من رذاذ المطر
 الذي أصابهما ، وقام يمشى في الطرقات يقتل النهار في
 انتظار المساء ، متصفحاً تارة وجوه حوانيت الكتب
 وتارة « إعلانات » المسارح الغنائية على الحيطان
 وحفلات « الموسيقى السانفونية » ؛ إنه حتى اليوم لم يكن
 قد عرف موسيقى « بيتهوغن » معرفة كاملة . فإن
 الحفلات السنفونية القليلة التي حضرها لم تعقد بعد
 أسباب الألفة بينه وبين ذلك القلب الكبير ، ولم يقنط
 الفتى ، فهو يعلم أن الآلهة لا تكشف سرها لأول
 قادم ، وأن الملوك والعظماء لا يظهرون لكل من طرق
 أبوابهم . إنما ينبغي الصبر الطويل على الجلوس بأعتاب

الهياكل وأبواب القصور ، والتوسل بالرغبة الصادقة
في الوصول ؛ فإن الصبر في الفن وفي الحب هو مفتاح
الطريق . ووقع نظر محسن على برنامج حفلة موسيقية
تعزف فيها السمفونية الخامسة لبتهوغن . تبتدىء بعد
الظهر وتنتهى في المساء الباكر ، فما تردد وأزمع الذهاب .
وجاء الظهر فتعدى في مطعم صغير ثم أسرع إلى مسرح
« شاتليه » ليصغى إلى ذلك الرجل الذى أصغت إليه
أجيال من البشر . هنالك وجد الفتى المسرح يعج
بالناس . فاتخذ له مجلساً متواضعاً في أعلا المكان . وجعل
يشاهد من عل ذلك البحر الطامى من نساء ورجال في
القاعة والشرفات ، ولم يمض قليل حتى ظهر الموسيقى
« جابرييل بيرنيه » رئيس الفرقة بعصاه الصغيرة ولحيته
البيضاء القصيرة . فسكن الضجيج فجأة وارتفعت
الأيدي بالتصفيق . ثم خيم على المكان سكون قدسى
كسكون المعابد ، وشعر محسن بالخشوع الذى خامره

في الكنيسة ذلك اليوم ، وتحركت يد الأستاذ بالعصا ،
فإذا « يتهوثن » يتكلم بلغته السماوية قوية أول الأمر
في ذلك الـ « أليجرو » الجليل ، حلوة بعد ذلك كأنها
أصوات الملائكة الصافية في ذلك الـ « أندانت »
الهادئ ، ثم فياضة بالسرور الداخلي من ذلك
الـ « سكرتزو » المشرق إلى أن تنتهي منه إلى ذلك
الفرح المتفجر من أضواء أنغام الـ « پرستو » الأخير .
نعم . إن هو إلا وحي السماء يتكلم بمختلف المشاعر
العظيمة التي رفعت الإنسانية إلى هذه المرتبة ! لقد بدأ
محسن يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التي قرأها في
نيتشه : « كل عواطف البشرية السامية في السنفونية
الخامسة » .

وترك محسن المسرح وهو شارد اللب ، شأنه شأن
بقية الناس . ما زالت نفسه هائلة في ذلك الجو العلوي .
وخرج إلى الطريق فاستقبله الهواء البارد ضارباً وجهه

فعادت في الحال إليه نفسه ، ونظر حوله فإذا الظلام
ينبئه أن الموعد قد قرب . فأسرع في المشي إلى
« الأوديون » ووقف ببابه مستخفياً وراء عامود يرقب
خروج الحسنة .

دقت الساعة العاشرة . فأقفل شباك التذاكر .
مخرجت الفاتنة تنهادر كالغزال الذي وصفه إسحق
الموصلي بقوله :

شادن لم ير العراق وفيه

مع ظرف العراق دل الحجاز
وعرف محسن هذا الشادن من مشيته ذات الدل
قبل أن يرى في الظلام وجهه . فاختلج قلبه ولم يتحرك
وابتعدت صاحبتة ؛ وهمست إليه نفسه أن انطلق خشية
أن تختفي عن نظرك ، فأسرع خلفها وهو كالخائف ،
إلى أن بلغت سلم « المترو » الأرضي فنزلت إلى المحطة
بعد أن أبرزت لعامل الباب تذكرة من دفتر معها . وما

إن وصل محسن واتجه إلى شباك التذاكر وابتاع تذكرة
ودفع قطعة فضية واسترجع بقيتها حتى كان القطار قد
أقبل ومضى بالفتاة . وهو ينظر فاغرا فاه خائب الأمل .
وثاب إلى رشده بعد قليل . فقال لنفسه : « لم أحسب
حساب دفتر التذاكر الذى معها ! بالطبع ينبغي
أن يكون مع مثلها هذا الدفتر ، وهى التى تقطع
عين الطريق آتية غادية مرتين فى اليوم ! لا بأس .
لا فائدة من الحزن والندم ، غداً أعيد الكرة بعد أن
أعد عدتى ! » ، وجاء الغد فحصل على دفتر تذاكر فى
الدرجة الثانية وانتظرها ثم اقتفى أثرها حتى المحطة . وجاء
قطار المترو فاندفع هو إلى عربة فى الدرجة الثانية ونظر
خلفه فإذا هى تصعد إلى عربة فى الدرجة الأولى ...
وسار القطار ولا اتصال بين العربات ، والمحطات كثيرة
ولم يعرف فى أيتها نزلت الفتاة ! وضاع أثرها أيضاً منه
فى هذه المرة . فسخط وثار على نفسه صائحاً : إنها الخيبة

والبله بعينه ! ألا أستطيع أن أقتنى أثر إنسان عشرة
أمتار ! ثم هداً وابتسم وقال كالحالم : « ما كنت أعتقد
أن مهنة البوليس السرى بهذه الصعوبة » !

غير أن هذه التجارب الخائبة قد نفعت الفتى في
اليوم الثالث ، فقد احتاط للأمر من كل جانب . ولم
يغفل عن الفتاة طرفة عين . وصعد معها في عربة واحدة
وجعل يراقبها عن كشب دون أن يظهر لعينيها حتى بلغ
المترو محطة « پورت دى ليلاس » فنزلت ، فأسرع
ونزل خلفها ... وسارت في طريق طويل ، تنبت على
جانبيه أشجار الزيزفون والكستناء فتابعها متواريًا بين
لحظة وأخرى خلف جذوع الأشجار ؛ إلى أن بلغت فندقًا
يدعى « فندق زهرة الأوكاسيا » فدخلت ...

لم يفعل محسن شيئًا بعد ذلك ، غير أنه عاد أدراجه
وهو لا يمشى على الأرض ، .. ولكنه يطير راقص القاب .
فقد عرف منزلها .

وفي صباح الغد نهض محسن مبكراً وفتح حقائبه
وحشر فيها ثيابه وكتبه حشراً ، وودع المرأة العجوز
الدهشة على عجل ... وأعطاه رسالة سريعة كي تسامها
إلى أندريه وزوجته ، ووضع أمتعته في « تاكسي » ،
وهو يقول للمرأة العجوز : قبلني عن الصغير « چانو » .
غداً يخبرك أندريه عن سر هذا كله ... إلى اللقاء ... !
والتفت إلى سائق السيارة وهمس : « إلى پورت دي
ليلاس فندق زهرة الأكاسيا » !

وما كادت تختفي السيارة حتى ثابتت العجوز إلى
رشدتها وقالت متنهدة :

— هذا الذي كنا نحسبه عاقلاً ؟

كانت السيارة تسابق الريح ، وقلب محسن يسابق
السيارة ، وهو كأنه قد ظفر بأيوان كسرى ! ما كل هذا
الفرح ؟ ألا أنه رآها تدخل فندقاً ! وإذا ظهر بعد هذا

كله أنها لا تقطن هذا المنزل وأنها ذهبت زائرة . أما
كان ينبغي له أن يترىث ويستوثق من الأمر قبل هذا
الركض الجنوني بأمته !

هنا اصفر وجهه قليلا ، وخشى أن يكون قد فقد
أثرها أيضاً هذه المرة . غير أنه لم ير إلا أن يمعن في
السير وأن ينزل هذا الفندق فقد فات أوان الرجوع ،
ووقفت السيارة بباب الفندق وأنزلت الأمتعة وقادته
المديرة إلى الحجرة رقم ٤٨ في الطابق الخامس .

وكان كل ما يطمع فيه محسن وقتئذ ، أن يعرف
هل تقطن هنا حقاً صاحبتة ؟ وفي أى طابق وأى
حجرة ؟ ولكن كيف يوجه السؤال وهو لا يعرف
اسمها ؟ ودخل الفتى حجراته ، فألفاها صغيرة نظيفة ،
ذات نافذة تطل على فضاء (فهذا الحى هو طرف قصي
من أطراف باريس وباب من أبوابها) ، كما ألفى مطبخاً
صغيراً ملحقاً بالحجرة ، معداً بأحدث معدات تهيئة

الطعام ، من موقد وفرن صغير يشعل بغاز يأتي في
أنابيب ، إلى أدوات لشواء اللحم ، وخزان لوضع الأواني
وحوض ماء . فهذا الفندق معد لسكن الأسر الفقيرة ،
وكل حجرة بلحقها معدة كأنها مسكن مستقل .

ولبت محسن في حجراته ذلك اليوم يشتغل بإخراج
أمتعته وكتبه وتنظيم أمره في تلك الحجرة . وهو يقول
فرحاً : « لقد أصبح لي مطبخ ، إني سأحتاج إليه من
غير شك أيام العسر والإفلاس . فإن أكلة في المطعم
تنفق على هذا المطبخ البسيط ثلاثة أيام ! » .

نام محسن ليلته الأولى في ذلك المقر الجديد نوماً
ثقيلًا . فلقد قرأ البارحة كثيراً وتأمل كثيراً . وهو
إذ يفعل ذلك لا يستيقظ دائماً قبل التاسعة ، ولكنه في
هذا الصباح نهض قبل السادسة وثباً من فراشه على
صوت فاتن يغني كأنه طائر جميل هذه الأغنية المشهورة
في رواية « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمى ...

لا يعرف أبداً قانوناً ... »

فأسرع إلى النافذة وبحث عن الصوت فإذا فتاته
فى « روب دى شامبر » نسائى من الحرير الأبيض تنظم
« أزهار البنفسج » فى أصص على حافة النافذة التى تحت
نافذته ! هى ؟ هنا ؟ تعيش فى حجرة أسفل حجراته ! ؟
وثب قلب محسن ونبض نبضات ، خيل إليه أنها
سمعتها ، ولكنها مضت فى غنائها :

« إذا لم تحبنى فأنا أحبك

وإذا أحببتك فالويل لك ! ... »

الفصل السابع

أسرع محسن وارتدى ثيابه ووقف بباب الفندق
ينتظر خروجها . فهو قد أدرك أنها لا بد خارجة بعد
قليل . وهو يعلم أن شباك تذاكر « الأوديون » يفتح في
الساعة الحادية عشرة . ولم يخب ظنه . فقد سمع صوتها
بعد لحظة وهي تنزل السلم سائلة صاحبة النزل عن بريد
الصباح . فاستعد وضبط أعصابه . وما كادت تدنو منه
حتى تقدم إليها ورفع قبعته السوداء فرفعت الفتاة
أهدابها الجميلة وسددت إليه عينيها الفاروزيتين . فارتج
عليه ولم يعرف كيف يبدأ الكلام . وخيل إلى الفتاة
أنها رأت هذا المعطف وهذه القبعة السوداء من
قبل . وبدا على وجهها أنها تذكرته . فمارأى محسن
منها ذلك حتى قال للفور :
— نعم ، أنا هو ...

فابتسمت قليلا . غير أنها قالت :

— هو من ؟ ..

نفجّل الفتى وارتيبك ، ورأت الفتاة خشونة ردها

عليه فاستدركت :

— إن لم أخطيء الظن فأنت ياسيدي « زبوني » !!

— نعم . أنا هو « زبونك » الدائم . ولى الشرف

أن أكون كذلك ..

— وما جاء بك إلى هذا الحى الذى لا يعرفه

الأجانب ؟ معذرة من فضولى !!!

— فضولك ياسيدتى هو كل ما أرجو وما أحب

جاء بى إلى هذا الحى ... الفضول ...

فابتسمت وقالت :

— أيضاً !!

— بل ... شيء أكبر جدا من هذا ...

واحمر وجهه قليلا . وخشى أن يكون الموقف قد

طال .. وأنه قد قطع عليها السير . فأبدى لها أسفه
سريعاً .. وتخى عن طريقها واستأذنها في أن يسير إلى
جانبا قليلا حتى يتم حديثه .. فأذنت له ومشيا إلى
محطة المترو وهو يقول :

— إني جئت إليك أحجز محلا لمشاهدة قصة
هذا المساء ! .

— شباك التذاكر ليس هنا ! إنه هناك في المسرح
— وما يمنع أن يكون في أى مكان تحليل فيه !
هو الذى يجب أن يتبعك ... ككل شىء وكل
إنسان !

فالتفتت إليه تستجلى أمره وكأنما أدركت
قليلا حقيقة غرضه :

— وكيف عرفت أنى أقطن هذا الحى وهذا
الفندق ؟

— عجباً ! أتقطنين هذا الحى وهذا الفندق !! إذن

أنت تقطنين هذا الحى وهذا الفندق !
فنظرت إليه فاحصة كمن ينظر إلى مخلوق عجيب
لكنه مضى يقول :
— وافرحتاه ! أنا أيضاً أقطن هـذا الحى
وهذا الفندق !

فقالت فى لهجة المستريب :
— منذ زمن طويل ؟ !
— منذ ... لست أدري ... نعم منذ زمن طويل !
فلم تنبس الفتاة . وساد بينهما صمت عميق ...
وشعر محسن بيرد يكتنف الموقف ورأى محطة المترو قد
أصبحت منهما على قيد خطوات ، وخشى أن تضطره هى
نجاة إلى الاقتراق عنها ولم يقل بعد شيئاً يثبت إلى
الأرض هذه الصلة الطائرة ... فاندفع يقول فى
غير تبصر :

— ما أجل هذا الصباح ! لقد استيقظت على أغنية

« كارمن » تتصاعد من نافذة تحت نافذتى !
لكن ... بأى صوت وأى غناء !!

وكان الفتاة لم تسمع شيئاً . فقد لزمت الصمت .
وكانت قد دنت من سلم « المترو » الأرضى . فالتفت
إلى محسن ومدت يدها إليه قائلة فى صوت كله
تحفظ ، كأنها تخاطب شخصاً لا تعرفه ولا تحرص على
أن تعرفه :

— عم صباحا يا سيدى !

وهبطت السلم واختفت فى لمح البصر تاركة الفتى
فى مكانه كتمثال من الرخام قد غطاه الجليد !

ثاب محسن إلى رشده ولكن الدهش لم يفارقه .
لماذا تركته على هذا النحو ! أكان مسرفاً فى حديثه ؟
لكن لماذا ؟ وماذا كان يجب عليه إذن أن يقول !
واسترسل فى التفكير برهة يقلب الأمر على
وجوهه . إلى أن انتهى به حديث النفس إلى شاطئ

هادى : الرجاء ، والرضى بما حدث حتى اليوم . فإن
حياته منذ اليوم إلى جوارها شيء ليس بالقليل . بل إنه
الآن يستطيع أن يعرف عنها الكثير . يستطيع أن
يعرف اسمها على الأقل . وأن يعرف مع من تعيش هنا ؟
ولم يفكر محسن أكثر من ذلك ، فقد جرى لساعته إلى
الفندق وصعد إلى الطابق الرابع وبحث عن الحجرة التي
تقع أسفل حجراته وقرأ رقمها : « ٣٨ » ؛ .. ثم نزل في الحال
إلى صاحبة الفندق فحياها في ابتسامة رقيقة وحرك شففيه
متردداً لا يدري بعد كيف يصل إلى غرضه دون أن
يبدو عليه شيء ، ولكن المرأة ابتدرته :

— أراض عن حجرتك يا سيدى ؟

ففتح هذا السؤال للفتى الطريق :

— لا بأس بها . وإن كنت أفضل الحجرة السفلى ؟

— السفلى ؟ في الطابق الرابع ؟ إنها مشغولة

يا سيدى !

— تشغلها أسرة؟؟

— كلا يا سيدي بل آنسة بمفردها !

فأخفى الفتى سروراً كاد يشرق به وجهه :

— بمفردها !

ثم استطرد في الحال :

— نعم . إن الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا

كالشباب ، تسعى وراء رزقها بمفردها . نعم . هذه الآنسة

إن صدق ظني ؛ فهي عاملة شباك التذاكر بمسرح

الأوديون ! ...

— صدق ظنك يا سيدي .

— نعم . إنني أختلف إلى الأوديون كثيراً ... هي ،

إن صدقت ذاكرتي : مدموازيل ... ماري ؟ .

فابتسمت المرأة ابتسامة ، لا أحد يدري إن كانت

تنم عن خبث ومكر وإدراك ، أو أنها لا تنم إلا عن

بساطة وملاطفة :

— خانتك ذا كرتك هذه المرة يا سيدى . إنها

تدعى مدموازيل سوزى ديبون !

— سوزى !

انزلق هذا اللفظ من بين شفتيه وهو فى نشوة

من فرح داخلى يشبه الدهول ، وتنبه من فوره وضبط

نفسه والتفت إلى المرأة وقال :

— أشكرك يا سيدتى على هذا الوقت الذى أضعته

عليك ... أشكرك !

ثم تركها وخرج إلى الطريق سريعاً يهمس :

— سوزى ! .

الفصل الثامن

أنفق الفتى ما بقي من ذلك الضحى هائماً على وجهه
في طرقات ذلك الحى ، جاعلاً من شأنه البحث عن
مطعم رخيص ، يلجأ إليه في أيام الضنك ، وهى كل
الأيام ، عدا اليوم الأول والثانى من كل شهر . وقد
وجد ضالته في شارع «مونيامو نتان» ؛ .. إنها شبه «حانة»
توسم فيها النظافة مع قلة النفقة ، فقد قرأ في لوحة من
ورق «الكرتون» معلقة على بابها أن ثمن الأكلة
الكاملة مع زجاجة من النبيذ خمسة فرنكات بالتمام .
وكان الظاهر قد أقبل ، وأحس محسن الجوع ، فدخل
ذلك المطعم واتخذ له مجلساً في أحد الأركان ، وجاءه
الغلام ، فطلب إليه شريحة من لحم الثور مشوية مع
البطاطس ، واعتدل في جلسته مطمئناً يفحص وجوه
الحاضرين . إنهم جميعاً من طبقة العمال ، أولئك الذين

ينبذون الشوكة والسكين ويقطعون الخبز واللحم بمدة الجيب...!

ولكن الفتى لم يأنف من تلك السواعد العارية ، والجباه المتصببة عرقاً ، والثياب التي تقطر بؤساً . فمحسن لا يشعر دائماً أنه في مكانه إلا بين أمثال هؤلاء وهو يوم يدفعه الرخاء إلى مطعم فاخر ، فإنه يدخله دائماً خائفاً كالغريب . وجعل الفتى يقضم رغيفه قضمًا خفيفاً في انتظار الغداء ، ويصغى في أعماق نفسه إلى تلك الرباعية من رباعيات عمر الخيام : « إذا أردت أن تعرف الصفاء والسلام ، فاحذب على تعساء الحياة ، أولئك الضعفاء الفقراء الذين يرتعدون في شقائهم ، عندئذ تظفر بالسعادة ! » .

نعم إنه فعلاً يجد في نفسه الآن شيئاً من تلك السعادة الهادئة الصافية في هذا المكان المتواضع . وسمع حواراً على مقربة منه ؛ بين صاحب المطعم البدين

وبين عامل من العمال صاحب الوجه حاد النظرات :

— لن أتناول اليوم لحماً ، إني مريض .

فقال صاحب الحان مشفقاً :

— نعم ، أرى ذلك ، إنك تعيش وحدك فيما أعلم

يامسيو إيثان ! . . .

— إني دائماً وحدي في الحياة .

هذه العبارة الأخيرة استرعت التفات محسن ،
لأنها ذات نعم حزين ، بل لأن الفتى كان يتصور أنه
هو وحده الذي يحيا دائماً وحده في الحياة . إنه يعلم أن
المعتزلة اليوم قليل ، ولكم يشعر بحب وتقدير لأولئك
الذين لا تطيب لهم السكنى إلا داخل أنفسهم . ذلك أن
قليلاً من الناس من يملك نفساً رحبة غنية يستطيع أن
يعيش فيها وأن يستغنى بها عن العالم الخارجى . إنه يعتقد
دائماً أن الزاهدين الحقيقيين ليسوا إلا أناساً لهم نفوس
كالفراديس ، تشقها الأنهار ، وتنيرها الشمس ،

وتتلاً فيها الكنوز ، فهي عالم من الفتنة والسحر ،
لأنها لبة لبداية وأسراره ...

وأبطل طبق الحساء على جاره العامل المريض ،
فأبصره قد أخرج من جيبه كتاباً ، جعل يلقونهم صفحاته
بدل الطعام ، وود محسن لو عرف عنوان الكتاب .
ودفعه حب الاستطلاع إلى أن يعيل بجسمه ويختلس
النظر ، ففاجأته عين الرجل ، فارتبك الفتى وأشار إلى
الكتاب :

— معذرة ! هذا الفضول مني ، إنني أحب الكتب ،
لا شك أنه كتاب لذيذ !

فأرسل إليه الرجل نظرات عميقة . ولم يقل شيئاً ،
لكنه مديده وأرى الفتى العنوان على الغلاف ، فاستطاع
محسن أن يقرأ :

— « رأس المال » : كارل ماركس .

لم يمض النهار حتى نشأت صداقة وديعة بين محسن
وذلك العامل الفقير ، وقد أنس أحدهما إلى الآخر كما
يأنس الغريب إلى الغريب ، وهو الواقع { فهذا الرجل
روسى ترك بلاده منذ بضعة أعوام ، وهو أيضاً من
أولئك الذين يعيدشون على القراءة والتفكير والوحدة .
وقد دعا الفتى إلى حجرته الصغيرة التى يقطنها فى إحدى
دور العمال . فرأى محسن الكتب مكدسة فى كل مكان ؛
ولم يستطلع محسن شيئاً عن دخيلة الرجل ، لكنه
أحس أن الرجل قد فرح بمعرفته فرحاً عميقاً . فقد
قال وهو يعد له الشاي على موقد فى أحد الأركان :
— لكم أشعر أن وطأة مرضى قد خفت قليلاً منذ
لقائنا ، لست أدري لماذا ؟

وقدم للفتى قدح الشاي ، وجلس على صندوق
قديم من الخشب الأبيض . فقد أكرم ضيفه

بالكرسى الوحيد فى الحجرة ، ورشف محسن رشفة
وهو يقول :

— وأنت يا مسيو إيثانوفتش ؟ ألا تحب الشاي ؟
— إني أفضل جرعة من « الفودكا » . آه إن هذا
الشراب مع « تولستوى » ، هما كل ما أحب من
الروسيا .

ولمح محسن بعض المراحة فى كلام الرجل ، فقال له
فى سداجة :

— كيف ذلك ؟ إن روسيا هى جنة الفقراء .
فأجابه الرجل كالمخاطب لنفسه :
— أتظن ؟ إن جنة الفقراء لن تكون على هذه
الأرض .

وصمت الرجل قليلاً ثم قام إلى زجاجة « الفودكا »
فتناول منها جرعة وهو يقول :
— أنت أيضاً ممن يعتقدون فى هذه الخرافة : جنة

الفقراء ! إني فكرت في أمرها كثيراً ، ومن ذا الذي
لم يفكر فيها ؟ تلك مشكلة الدنيا التي لم تحل : « وجود
أغنياء وفقراء وسعداء وتعساء على هذه الأرض » .
من أجل هذه المشكلة وحدها ظهرت الرسل والأنبياء !
— يا مسيو إيثان . لست أرى رأيك في أن
المشكلة لم تحل ! إن الأنبياء قد جاءوا من السماء بخير
الحلول .

فتفكر الرجل قليلاً ثم قال كالمخاطب لنفسه :
— أنبياءكم أنتم .. نعم هذا من الجائز ... إن
الشرق قد حل المعضلة في يوم ما . هذا لا ريب فيه .
إن أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم
على هذه الأرض . وأنه ليس في مقدورهم تقسيم مملكة
الأرض بين الأغنياء والفقراء . فأدخلوا في القسمة
« مملكة السماء » . وجعلوا أساس التوزيع بين الناس
« الأرض والسماء » معاً . فمن حرم الحظ في جنة الأرض ،

خفته محفوظ في جنة السماء . هذا جميل . ولو استمرت
هذه المبادئ وبقيت هذه العقائد حتى اليوم لما غلى
العالم كله في هذا الأتون المضطرم . ولكن « الغرب »
أراد هو أيضاً أن يكون له أنبياءؤه الذين يعالجون
المشكلة على ضوء جديد . وكان هذا الضوء منبعثاً هذه
المرّة من باطن الأرض لا آتياً من أعالي السماء ، هو ضوء
العلم الحديث . فجاء نبينا « كارل ماركس » ومعه إنجيله
الأرضي : « رأس المال » وأراد أن يحقق العدل على
هذه الأرض ، فقسم « الأرض » وحدها بين الناس
ونسى « السماء » ، فإذا حدث ؟ حدث أن أمسك الناس
بعضهم برقاب بعض . ووقعت المجزرة بين الطبقات
تهافتاً على هذه « الأرض » !! .

وتأمل محسن قليلاً هذا الكلام . ثم قال

كالمخاطب لنفسه :

— كمن يلقي تفاحة بين أطفال يتهظون !

— لقد أتى قنبلة « المادية والبغضاء واللهفة
والعجلة » بين الناس ، يوم أفهم الناس أن ليس هنالك
غير « الأرض » ؛ يوم أخرج « السماء » من الحساب لأن
علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء . أما أنبياء الشرق
فقد ألقوا زهرة « الصبر والأمل » في النفوس يوم
قالوا للناس « لا تنهالكوا على الأرض ، ليست الأرض
كل شيء . إن هنالك شيئاً آخر غير « الأرض » يدخل
في « التوزيع » . آه إن أنبياء الشرق هم العباقره حقاً !!
وصمت الرجل قليلاً ثم مضى يقول :

— إن روح « المسيحية » كما نبعت في الشرق : هي
المحبة والمثل الأعلى . وروح « الإسلام » الإيمان والنظام ،
ومسيحية اليوم في الغرب هي « الماركسية » وهي كذلك
لها مثلها الأعلى : لا في محبة الناس بعضهم بعضاً وتبشير
الفقراء « بملكة السماء » ، وحضهم على إعطاء ما لقيصر
لقيصر وما لله لله ، بل بإغرائهم بملكة تقام على أنقاض

طبقة وأشلاء طبقة ، ونصحهم بالهجوم على قيصر ،
وأخذ ما لقيصر ، وإن « إنجيل » هذا الدين : كتاب
« رأس المال » تجد أيضاً في بعض صفحاته تنبؤات مخيفة ،
كتنبؤات « يوحنا » في رؤياه . ففيه توعده بانهار هذا
العالم وحلول عالم آخر قوامه العمال وخدم : أى أجسام
تسير بغير رؤوس فوق المناكب . ياله من حلم مخيف !
أما « إسلام » العصر الحديث في الغرب فهي
« الفاشستية » . وهى كذلك لها طابع الإيمان والنظام .
إيمان لا بالله ، بل « بزعيم » من البشر . ونظام لا يؤدى
إلى التوازن الاجتماعى بالتواضع والزكاة . إنما هو نظام
فرضته يد الإرهاب ليؤدى إلى مطاعم الاستعمار ،
والوثوب على الضعيف من الشعوب . ولهذا الدين أيضاً
« كتابه » وخطبه « المنبرية » الملتهبة لا بجملة عقيدة
سماوية ولكن بجملة قوة حيوانية وشراسة دموية .
آه أيها الصديق . تلك هى الديانات التى استطاع الغرب

أن يخرجها للناس ، يوم أراد أن يزاحم الشرق ويخرج
للعالم أديانا !

فرفع محسن رأسه بعد إطراق طويل :
— يدهشني منك هذا القول يامسيو إيثان ،
وأنت من العمال ؟ !

— نعم ، أنا من العمال ، ومن الفقراء . . . لكن ،
لى من سوء الحظ رأس يفكر . إنى أعرف أن وعود
أديان « الغرب » الجديدة كلها هراء . وإن هو إلا تغيير
بالعمال والفقراء . إن « الماركسية » و « الفاشستية » قد
أخذا عن أديان « الشرق » طرقها وأساليبها ، وفهما
جيداً أن كل خطة النبي هى استمالة الساخطين والمتذمرين
والمعوزين وهم الكثرة الغالبة . هكذا فعل عيسى
ومحمد . هل تبعهما أول الأمر غير العبيد والأرقاء
والفقراء والضعفاء ؟ ذلك أن طبقة الراضين والموسرين
ليست فى حاجة إلى أن تتبع أحداً ! وهى مع ذلك قلة

نادرة وسط خضم الدهماء . فالدهماء هم سند الدين ، وهم
القوة في كف النبي . لقد أدرك ذلك جيداً أنبياء أوروبا
في العصر الحديث ودرسوا « Technique » النبوة على
أيدى الأساتذة الشرقيين . فبنوا كل شيء على أساس
واحد : الدهماء . وجعلوا يتنافسون في إرضاء هذه الكتلة
الآدمية بالوعود : وعود واقعية قريبة الأجل ، وهنا كل
غباء هؤلاء الأنبياء ! .. إن التنافس بين الدينين ليبدو
لي شديد الخطر .. وإني لأتنبأ لك منذ الآن بوقوع
نوع من « الحروب الصليبية » بين « الماركسية »
و « الفاشستية » ! تحشد فيها الدهماء ضد الدهماء . وتتناثر
فيها الجثث وتتطاير الأشلاء .. هذا كل مكسبنا . إنهم
لن يبقوا لنا حتى على ذلك الوهم اللذيذ والعزاء الجميل
الذي غمرنا فيه أنبياء الشرق الحقيقيين ..

— أي وهم وأي عزاء ؟ !

— جنة السماء ومملكة السماء !

— أتسمى هذا وهماً ؟

— آه معذرة .. معذرة ! إنك مؤمن ! ما أسعدك

أنت ! وما أحسن حظك !

الفصل التاسع

خرج أندريه من العمل في استراحة الغداء ،
فوجد رسالة من محسن تنتظره . فلم يدهش . إن رسائل
محسن إليه قد كثرت منذ أن غادر منزل الأسرة في
« كوربوا » جاريًا خلف قلبه ، فض أندريه الرسالة وقرأ :
عزيزي أندريه :

لم أزل أستيقظ على غنائها ، لكن هذا الصباح قد
حدث أمر جلل ، بينما أنا قرب النافذة أصغى إليها خفية
إذا الباب يطرق وإذا « الغسالة » قد حملت إلى ثيابي
النظيفة وقدمت إلى ورقة الحساب : عشرة فرنكات ،
فلمعت في ذهني عند ذاك فكرة أعجبتني وأرجو أن
تعجبك ، ذلك أني تناولت الورقة وسطرت في ذيلها :
« سيدتي : لا أجد معي الساعة تقوداً ، فإذا تفضلت
وأديت عني الحساب فإنني لا أنسى لك هذه اليد ، ولك

جزيل الشكر سلفاً مع احترام المخلص : جارك رقم ٤٨ «
ودفعت الورقة إلى الغسالة وأحلتها على الحجرة السفلى
التي تقطنها جارتى مدموازيل « س » ! ومضت الغسالة
بالفعل ، وبقيت أنا أرتجف قلقاً . أتراها تؤدى عني ؟
واخجلتاه إذا رفضت ! وإذا قبلت فما يكون معنى هذا !
ينبغي أن أبادر فأبشرك . لقد عادت الغسالة إلى بعد هنيهة
تقول في ابتسام إن مدموازيل « س » جارتى قد دفعت
في الحال دون أن تنبس بلفظ .

ماذا تقول في كل ذلك ؟

« محسن ... »

ابتسم أندريه وطوى الرسالة ، وأشعل لفافة تبغ
ودخن قليلاً ثم أخرج ورقة وكتب :
عزيزى محسن :

ماذا أقول في كل ذلك ؟ أقول إن عهدى بالمحبين
أن يظهروا دائماً أمام الفاتنات بمظهر النعمة واليسر

والرخاء ، وأن يكونوا هم على الأقل الدائنين وقت
الاقتضاء ، ولكنك قد عكست الوضع وأصبحت مديناً
لفاتنتك بكل شيء ، أي : « بالقلب وبفاتورة الحساب »
إن مسألة التجائك في الاقتراض إلى مدموازيل « س »
ولما تتوثق بينكما المعرفة لغاية في الجرأة ! وإني لأعجب
جدا لهذا الحادث ، وأرى فيه فجر عهد جديد في
تاريخ الغرام م

« أندريه ... »

مرت أيام بعد ذلك والفتاة تصادف الفتى ، تارة
بباب الفندق وتارة في المصعد . ولا غرابة في ذلك ،
فهما متحدثان في المسكن . إنما الغريب في الأمر أنه
منذ أن أدت عنه الحساب لم يعد يقبل عايمها ذلك الإقبال
الذي كانت تراه منه ، ولم يعد يحيطها إلا تحية مختصرة ،
وإذا جمعهما المصعد فهو مطرق لا يريد أن يتكلم ، ولا

أن يشير بحركة تنم عن اهتمام لأمرها ، هو الذي كان
ينتظر منه على الأقل أن يبادر في شكرها على عطفها
الكريم . إنه لم يشكرها ، بل إنه لم يشر قط إلى ما حدث
بذكر أو تلميح . وانفردت سوزى في حجرتها ذات
مساء وجعلت تفكر قليلا في أمر هذا الفتى الغريب .
أهو شرقي متوحش لا يعرف الآداب واللياقة ؟ لكن
الأمر في ذاته أبسط من أن يحتاج إلى معرفة بالأدب
أو اللياقة . ولا يمكن أن يكون ذلك الفتى جاهلا ، إنما
هو تصرف مقصود ، لماذا ؟ هذا ما لم تهتد إليه الفتاة ،
إن هذا الفتى غريب الأطوار . هذا كل ما تستطيع
أن تفهمه .

لم يكد ينتهى الأسبوع ، حتى تلقى أندريه هذه

الرسالة :

عزيزى أندريه .

الآن ، آن الأوان أن أفي بديني ، ولا يليق أن
أرد إليها عشرة فرنكات ، إنما يحسن بي أن أقدم إليها
هدية . ماذا ترى أن تكون هديتي إليها ؟ أشر على
سريعاً مـ

« محسن ... »

فأسرع الفرنسى وأرسل الجواب :

عزيزى محسن :

إن باريس كلها لم تخلق إلا للنساء ، وكل تجارة
باريس هي في الهدايا التي تقدم إلى النساء . ما عليك
يا صاحبي إلا أن تمشي قليلاً في أى شارع من شوارع
باريس ، فإنك واجد عشرات الحوانيت التي تعرض
ما تشتهي لصاحبتك من حقائب اليد ، وصناديق
« البودرة » والقبعات والجوارب والعطور والزهور ،
وقد مضى نصحنالك في هذا ولم تقبل النصيح مـ

« أندريه ... »

قرأ محسن هذه العبارة وردد كالخاطب لنفسه في
غير اقتناع :

— حقائب يد وصناديق « بودره » وزهور
وعطور ، أشياء لا معنى لها ، إنك أحمق يا مسيو أندريه !
ثم مزق الرسالة ووضع القبعة السوداء على رأسه
ونزل إلى الطريق هائماً على وجهه طول يومه في شوارع
باريس يفكر ويبحث عن الهدية دون أن يدخل حانوتا
أو يرسل عينه إلى وجه متجر . فهو لم يعتد النظر إلا
إلى واجهات حوانيت الكتب . وقادته قدمه مصادفة
آخر الأمر إلى سوق الطيور في الضفة اليمنى من نهر
السين ؛ . . وقرع سمعه صوت يبعث صغير ينادى المارة
بصفيره وكلماته الملقنة ، فرفع محسن بصره إليه وتفكر
هنيهة ، ثم دخل الحانوت لوقته وابتاع الببغاء ، وخرج
حاملًا قفصا ينبعث منه صفير وضجيج ، ومشى به مشية
المنتصر الذي ظفر بضالته !! لكنه لم يسر خطوات

في الطريق ، حتى وجد القفص الذي في يده قد تبعته
القطط والكلاب الضالة ؛ وإذا منظره وهو حامل
الببغاء وكلاب الحى خلفه قد بدأ يستلفت أنظار المارة ،
وخشى أن يجتمع حوله العاطلون والصغار ، فاستأجر
سيارة حملته مع الهدية إلى الفندق ، وما أن آوى
محسن إلى حجراته حتى خلع ثيابه على عجل وجلس إلى
بيغائه طول الليل ساهراً يلقنه كلمات وعبارات ،
إلى أن رضى عن هذا التلميذ الصغير ، فوضع في عنق
قفصه حبلاً رقيقاً وفتح نافذته وأدلى بالقفص في الفضاء
إلى أن حط على حاجز نافذة الفتاة ، ثم جعل ينجيه
مناجاة « حافظ الشيرازى » للببغاء في قصيدته التي
قال فيها :

« أيها الببغاء ! أيها الناطق بالأحاجي ! أحرص إلى
الأبد على ريشك زاهيا في لون الياقوت ، وعلى قلبك
فياضا بالمرح ! آه أيها الحظ ، أسكب على وجوهنا

ماء الورد ، ولا تبج للصاحي بأسرار النشوة . نعم ، إن
الحكمة هي الثراء الحقيقي ، ولكن ... كم تساوى إلى
جانب نظرة الحب ! ... »

استيقظت سوزى فى الصباح واتجهت إلى نافذتها
مترنمة كعادتها ، وما كادت تفتحها حتى رأت نفسها
أمام بيغاء فى قفص . فدهشت ثم أبصرت الحبل المدلى ،
فأدركت من أين هبط ، فرفعت عينيها إلى الطابق
العالى ، وإذا الفتى فى نافذته ييسم لها كأنما كان فى
الانتظار ، وحياتها تحية الصباح فردت عليه التحية باسمه ،
ثم أشارت إلى القفص قائلة :

— لمن هذا ؟

— لك .

— لى أنا ؟ شكراً لك يا سيدى ، لكن لماذا ؟

— هذا ما استطعت أن أقدمه إليك اعترافاً بجميلك

فأرجو أن تقبله مني !

— ما أجل هذا البغاء ! ما اسمه ؟!

— اسمه ... « محسن » .

— « محسن » !

وما كادت الفتاة تنطق بهذا الاسم حتى صفر

البغاء وصاح :

— أحبك ، أحبك ، أحبك !

فضحكت سوزى وقالت :

— عجباً ! من لقنه هذه الكلمات ؟

فأجاب الفتى لفوره :

— لا أحد ... في « عينيه نظر » ، هذا كل ما في

الأمر . !

فابتسمت الفتاة لهذا الجواب ، وقالت :

— أكرر لك شكري يا ... مسيو ...

— أسمحين أن أقدم إليك نفسى ... ولو ان التقدّم
من هذه النافذة العالية لا يسمى تقدماً ... فالأصح
أن أقول : أن ألقى إليك بنفسى !
فضحكت الفتاة وقالت :

— يسرنى بالطبع ذلك . غير أنى لا أضمن لك
الوصول سالمًا إلى نافذتى . فالحق باسمك وحده الآن
فهو يكفى .

فقال الفتى :

— اسمى « محسن » ...

فنظرت إليه الفتاة نظرة استغراب وقالت :

— كالبيغاء ؟ !

— نعم . لى الشرف أن يكون اسمى كاسم بيغائك !
فابتسمت ولم تجب ، وظن محسن أنه قد تحدث
إليها أكثر مما ينبغى ، وخيل إليه أنه ربما أثقل عليها ،
وخشى أن يزيد فى الكلام ، فتبدّر بادرة تمحو من شفقتها

هذا الابتسام ، خياها سريعا بإشارة خفيفة ، وابتعد عن
النافذة محتفيا لفوره عن أنظارها . . . ثم جلس إلى
مكتبه يتأمل الأمر . عجبا ، مامنى الجلوس ، وفيه
التأمل ! لقد كانت أمامه ، وكان بينهما حديث . لماذا
تركها ؟ ألا يجدر به أن ينهض من مقعده ويعود
إليها ؟ . . . ولكن نافذتها كانت قد أغلقت . . .

الفصل العاشر

شعر محسن حوله ببرد الوحدة . وأراد أن يحدث
أحداً أو يذهب لمقابلة أحد . غير أن الوحيد الذي
يستطيع أن يفضي إليه بشيء هو : أندريه . لا . إنه
ليس مجنوناً حتى يخبر أندريه اليوم بما حدث ، فيسخر
من خيبتته ، ويلقى على مسامعه مره أخرى : « إن المرأة
تكسب بالواقع لا بالخيال » آه الواقع ! الواقع هو . . . إنه
هو الواقع في حب لا أمل فيه ، ولا يجد إلى جانبه حتى
من يعزيه ! وتذكر أيقانوفتش . نعم ، لعل ذلك الروسي
المنفي مثله في مجاهر « العزلة » يستطيع أن يسرى عنه
الساعة بحديثه الغريب واطلاعه وتأملاته . . .

وكان المساء قد أقبل ، وأدرك أن صاحبه لا بد قابع
في حجرته الحقيبة تحت سقف ذلك المنزل العتيق .
فذهب إليه من فوره ، فوجده كما توقع أن يراه ، جالسا

فوق صندوقه الخشبي ، كما يجلس الثراء فوق
« الشيزلونج » . وبين يديه كتاب ضخم ينهل من صفحاته
كما ينهل الألماني من كوب « جمعة » ذى زبد .

فما إن رفع رأسه ورأى الفتى ، حتى أشرقت
أساريره المظلمة ، وانتعش قليلا وجهه الذابل ، وطرح
الكتاب من يده ، ونهض يهيباً للزائر مكاناً خليقاً
بجلوسه . فمنعه محسن بإشارة سريعة ، وبادر فقعد مثله
على حافة الصندوق . وصمت قليلا . وبدا عليه أنه يريد
أن يقول شيئاً فى نفسه . ولم يتردد طويلا . فقد انفجر
على الرغم منه :

— يا مسيو إيثان ! إني لست سعيداً . ولعلك
أنت أيضاً كذلك . إن سر تعاستنا هو أننا نعيش فى
هذه الحجرات المغلقة ، إننا نجهل الواقع وطرائقه
المباشرة . لا شىء يكتسب بالخيال فى هذه الحياة ...
فهز الروسى رأسه ، وابتسم ابتسامة ساخرة وقال :

— من علمك هذا الكلام أيها الشرق !
— هي البداة . ولكن أعيننا هي التي لا ترى ...
— لا . لست أصدقك . ذاك كلام لا ينبغي أن
يقوله مثلك ...

فمر طيف أندريه برأس محسن . لكنه لم يقل شيئاً
ومضى إيثان يقول :

— الواقع والطرق العملية المباشرة ؟ تلك بالضبط
كل حياة الحيوان . الفاصل الوحيد بين الإنسان
والحيوان هو « الخيال » . إن اليوم الذي يستطيع فيه
الحيوان أن يحيا دقيقة واحدة خارج عالم الواقع والمادة ،
اليوم الذي يلجأ فيه الحيوان إلى طرق معنوية غير مباشرة
للوصول إلى غاياته ، اليوم الذي يستطيع فيه الحيوان
أن يمضي الليل « يحلم » في غابته المقمرة بدلاً من مطاردة
الفريسة . هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية . الحلم
هو العالم العلوي الذي لا يدخله حيوان . الخيال هو تاج

السيادة والسمو الذى تميز به الإنسان !

وسكت لحظة . فقال محسن :

— نعم ، ولكن « الواقع » ..

فانطلق الروسى :

— « الواقع » ؟ الواقع ... انى لا أحترم الآن

كثيرا هذه الكلمة !

ومر طيف أندريه مرة أخرى برأس الفتى .

حقيقة ، إن صديقه الفرنسى هو الذى يذكر دائماً هذه

« الكلمة » ؛ ولكن هذا الروسى الشاثر ، الواقف

فى منتصف الطريق بين الشرق والغرب ... من يضمن

لمحسن أنه على حق فى كل هذه التصورات . وبدأ الشك

على وجه الفتى ... وقرأ إيثان ما يجول بخاطره ، فصاح

به وهو يهزه من كتفيه :

— آه ! « الخيال » هو ليل الحياة الجميل !

هو حصننا وملأنا من قسوة النهار الطويل !

إن عالم « الواقع » لا يكفي وحده حياة البشر . إنه أضيق
من أن يتسع حياة إنسانية كاملة ! نعم ، مرة أخرى
أقول لك إنى شديد الإعجاب بأنبياء الشرق . إن
المعجزة الحقيقية التي جاءوا بها : هي أنهم قدموا للناس
عالمًا آخر ، عامراً بسكان من ملائكة ذوات أجنحة
جميلة بيضاء ، زاخراً بجنت فيها أنهار من التبر وأشجار
من الزمرد ، راعداً بنيران تتأجج بلهب زرقاء كالسنة
الآبالسة ، الهامة كالخفافيش . . . في هذا « العالم »
استطاعت البشرية أن تعيش ، حياة أغنى وأحفل
من حياة الواقع . « الغرب » أيضاً حاول ذات يوم
أن يخلق للناس مثل هذه العوالم ، فظهر فيه أنبياء
الخيال منشئوا « الأثيوپيا » . فصنع توماس مور :
« جزيرة الخيال » ، وكامپانيلا : « مدينة الشمس » ،
وموريللى : « قانون الطبيعة » ، وكايبه : « رحلة إلى
إيكارى » !! : ألعاب صبيانية ، كتلك القصور والقلاع

والجنان التي يقيمها الأطفال على شاطئ البحر من
الرمال ! نعم ، خيال مرتب بيد المنطق مزين بنظريات
العلم والفلسفة ، كما تزين قصور الصبية بأوراق الحلوى
الفضية الذهبية ... لكن كم من البشر عاش في هذه
« العوالم » التي صنعتها أيدي « العلماء » أنبياء الغرب ؟
آه ، إن الغرب إنما عاش أجمل حياته في ذلك الحلم
السماوي وذلك العالم العلوي الذي صنعه الشرق . وإن
ضياح الغرب لم يبدأ إلا يوم أفاق من هذا الحلم ، ونزل
إلى عالم واقعه يدب في هضابه المتحجرة ووديانه الجافة
كما تدب الحشرات ...

وسكت الروسي لحظة ، ثم عاد يقول :

— آه !.. السماء ، الجنة ، الجحيم ! جرد عالمنا الأرضي

من هذه الكلمات الثلاث التي نبتت في الشرق ، تنهار
في الحال أروع أعمالنا الفنية . كل ما استطعنا أن نخلق
من جمال إنما صنع تحت نور شعاع من أشعة مملكة

السَّماء ، إني أعرف أن « الغرب » اليوم موضع تقدير وإكبار ، لعامه واستكشافاته وإنتاجه واختراعاته ، لكن .. ما قيمة هذا إلى جانب ذلك الاستكشاف الأعظم الذي ظهر في الشرق ، إن الغرب يستكشف الأرض ، والشرق يستكشف السماء . إن الذي استطاع أن يغير البشرية كلها في حلم يدوم الأحقاب ، إن الذي استطاع أن يصنع مثل هذا « الحلم » ، فهو حقيقة فوق مستوى البشر . إنا نجد ذلك الذي أوجد للإنسانية وأسكن الإنسانية : قارة جديدة ، .. لكننا لا نرى مجد ذلك الذي أصعد الإنسانية وأسكن الإنسانية : السماء !

وتأمل محسن ملينا قول الروسي وهو مطرق ، ... نعم ، .. إنه ليسعد دائماً أنه لا يسكن الأرض وحدها . إن حياته ممتدة أيضاً إلى السماء ، وإن له أصدقاء وأحباء وحماة من القديسين أهل السماء . إنه لن ينسى « السيدة زينب » الطاهرة وفضلها عليه في الملمات . إن لها وجوداً

حقيقيا في حياته . ما من مرة وقع في شدة إلا وجد
العزاء عند باب ضريحها ذى القضبان الذهبية . كل نجاح
ظفر به في الحياة هو دفعة من يدها ، وكل عطف هو
نظرة من عينيها ، وكل ابتسامة من الحظ إنما هي
ابتسامة من شفيتها . إنه يتخيل هيئتها ووجهها
وملامحها ؛ . . ويعتقد أنها في السماء بردائها الأبيض إنما
تنظر إليه دائما وترعاه وتجعله من شأنها ، كأن هذا
هو كل عملها . لكن هنالك ساعات تتجهم له فيها
الحياة ، وتقسو عليه الظروف ، ويرى كأن « السيدة »
قد نسيت . فيفطن ويدكر لوقته إنه في تلك الساعات
وتلك الظروف ، إنما هو الذي كان قد نسيها . نعم إنها
لا تنسى إلا من ينساها . إننا أهل الأرض لنشغل
أحيانا بما نصادف من فوز أو لذة أو متعة فنقع
في غشية من غرورنا ، ننسى معها أنفسنا وننسى السماء
وأهلها ، عند ذاك تتركنا السماء في حقارتنا الأرضية

ووجدتنا الباردة . فلا نستيقظ ونرى ما صرنا إليه إلا
يوم نحتاج إلى حرارة العزاء وإلى العطف العلوى . ذكر
الفتى كل ذلك . لقد كان مسجد «السيدة زينب» هو المكان
الذى يقضى فيه نهاره أيام الدرس . وكانت «السيدة»
هى التى تقلب له صفحات الكتب فيما خيل إليه ،
وكانت هى التى تصبره وتشده عزيمته ، وهى التى كانت
تجفف بأناملها الرقيقة النقية دموع حبه الأول وآلامه
الأولى . إنه لم يكن وحيداً . آه ... ما أقوى الإنسان الذى
يعتقد أن له صديقاً ونصيراً من أهل السماء ! إنه كان
يحملها نصيبها من التبعات . إذا أخفق فى خطوة فإن
«السيدة» هى التى تخلت عنه ، ولعلها أرادت هذا
الإخفاق لحكمة لا يعلمها هو ، وإذا وضع أمله فى شيء
اتجه إليها ضارعاً أن تقف إلى جانبه وتضم همسها إلى
همسه وصوتها إلى صوته فى رجاء «الله» . إن هذا
الإحساس جميل ، وهذا الاعتقاد مريح . نعم ، لو شعر

محسن لحظة أنه في وحدة مطلقة ، وأن السماء ليس لها وجود ، وأنها جرداء جدياء غير عامرة بكائنات عليا ، تتصل حياته بحياتها ، وأنه قد خلى بينه وبين هذه الأرض وحدها إلى الأبد ، لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يوماً واحداً !

عندئذ لمعت في رأس الفتى كسنا البرق صورة من حياته في الغرب . وللمرة الأولى تنبه إلى أمر مخيف : إنه لم يذكر « السيدة » في حرارة إلا الآن ، بعد حديث « إيثان » . لقد مرت الأيام تلو الأيام وهو يطالع أفكاراً مختلفة من الأغريق إلى فولتير ، ويشاهد وقائع مضطربة ، من أزمات القرن الماضي إلى انقلابات ما بعد الحرب . إنها لمحي تعصف بكل رأس . وإن رأسه قد أصبح كبقية ما حوله من رؤوس ؛ فقاعة بين فقاقيع تملؤها الأفكار والحوادث ، وتندافع في شبه إناء من خمر مغلى . ليس في حياته اليوم إذن مكان تهبط فيه « السيدة »

بردائها الأبيض ! وإن روحه قد غار كما يغور النجم
تحت شمس رأسه المحترق .

آه .. إنه قد نسي حاميته التي في السماء ! لو أنه
أحس يدها على كتفه ... لما تعثر في خطاه أمام صورة
« سوزى » .

الفصل الحادي عشر

فتح محسن عينيه في الصباح ، على شبه صوت
ملائكى ينادى اسمه . أترأه صوتاً آتياً من السماء ؟
ولكن النداء تكرر واضحاً عذباً . فوثب الفتى من
فراشه ، وأصغى ، ثم ابتسم : إنه آت من النافذة السفلى .
عجباً ! إنها سوزى تقول فى شبه نغمة موسيقية :

— محسن ! محسن !

فأسرع الفتى إلى النافذة كالجنون :

— أتنادينى ؟

فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة فى شىء من الدهشة .

ورأى الفتى يدها على قفص البيغاء ، تقدم إليه حب
« القرطم » ، فأدرك كل شىء . فتخاذل وارتابك :

— معذرة . لقد نسيت إنى أشترك مع بيغائك

فى عين الاسم ...

ورآها تبسم . ورآى جمالها فى ذلك الصباح الباكر
أنضر من زهر « النرسيس » فى أصص نافذتها .
فتشجع وقال :

— نعم ، إنى أشترك مع هذا البيغاء فى الاسم ،
ولكنى لا أشترك معه فى الحظ . إن الفرق بيننا عظيم .
إنه هو الذى يحظى بعنايتك ، فتنادينه ، وتناجينه ، هذا
الأحمق الذى لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة ! آه ..
لأولئك الاشتراكين الذين يطلبون المساواة بين الناس
فى الحظ والنصيب ، وأنا لا أستطيع أن أطمع فى مساواتى
فى الحظ والنصيب بهذا البيغاء !

فضحكت الفتاة وقالت :

— أترأه مطعماً عسيراً ؟!

— أن أكون مثل هذا البيغاء ؟ إنى لا أطلب شيئاً

إلا أن أكون مثله بالضبط !

— ولكنك لست فى قفص .

— آه ياسيديتي ! إني في قفص ، لا يراه كل
الناس .. !

فنظرت إليه الفتاة ملياً ثم قالت باسمه :
— إذا كنت حقيقة كذلك . فأنت تستحق إذن
شيئاً من ذلك العطف الذي تمنحه الطيور السجينة في
الأقفاص . !

فأسرع الفتى يقول في تضرع :
— ثقي أنني أشد طيور الأرض استحقاقاً لعطفك !
فسأله الفتاة :

— وما نوع العطف الذي تريده مني ؟ إني بالطبع
لا أستطيع أن أقدم إليك قليلاً من « القرطم » !
— إنك تستطيعين أن تتناولي معي قليلاً من
« القرطم » ... هذا المساء في مطعم ... في أي مطعم
يروك ...

فضحكت الفتاة ضحكة طويلة رقيقة :

— يالك من مداعب ماهر !

— أنا ؟ آه ياسيدتي ، لأول مرة أسمع من يصفني

بالمهارة في شيء . شكرًا لك !

لم يأت العصر ، حتى كان محسن في منزل أندريه ،
يقيم الدنيا ويقعدها ، وقد أجلسه صديقه الفرنسي أمام
المرآة ، وجعل ينظم له شعره الأشعث ، بينما أخذت
« چرمين » تنظف معطفه الأسود بالبنزين وتزيل عنه
البقع . ورأى الفتى اهتمام زميليه ، فصاح يحسبهما :

— نعم ، إصنعاني إنسانا خليقًا بقاء امرأة جميلة !

فابتسمت چرمين وقالت !

— عرفت اسمها أخيرًا ؟

— سوزي !

لفظها الفتى همسًا كمن يرتل صلاة ، ولكن چرمين

سمعته فقالت باسمه :

— اسم جميل ، والموعد أين ومتى ؟

— هذا المساء في محطة المترو !

— وبعد ؟

— سنتناول العشاء ..

— في أى مطعم ؟

— آه ... صدقت ... لست أدري ... ياللمصيبة !

نسيت التحري عن المطعم الموافق ... أسرع ! أسرع

يا أندريه وأخبرني عن رأيك في هذا الموضوع الخطير !

فصاح أندريه يائساً :

— لا تهتز هكذا ، لقد فسد ترتيب شعرك ،

وتبعثرت خصلاته من جديد ، آه لقد ضاع تعبي

فيك سدى !

— ولكن موضوع المطعم ذو أهمية كبرى ...

— لا شيء أتفه من موضوع المطعم . هذا الذى

تصفه بالخطورة والأهمية الكبرى ! .. كل شيء تافه

تتخيله أنت دائماً هائلاً ، لو كنت مكانك لأخذتها بكل
بساطة إلى مطعم « بوكاردى » !
فضحكك چرمين ضحكة طويلة ، فنظر إليها زوجها
نظرة العجب :

— لماذا تضحكين !

— إنه المطعم الذى ذهبت بى إليه يوم لقائنا الأول ،
ومع ذلك .. لم تشأ يومئذ أن تطلب من أجلى « أوردور
قارييه » !

— أما زلت تذكرين تلك الحماقات !

فصاح محسن وهو يلتفت إليهما :

— آه أحسنتما صنعاً بهذه الحماقات ! سأطلب لها

أنا هذا « الأوردور قارييه » !

فانهره أندريه :

— قلت لك : لا تهتز ! ولا تتحرك حتى أفرغ

وأطمئن على منظرِكَ !

فالتفت الفتى إلى المرأة وهو يقول فى قلق :

— وهل تعتقد أن الحال سيدعو إلى الاطمئنان ؟!

— إن الأمر على كل حال لا ينبغى أن يدعو إلى

اليأس . !

فسكت محسن على مضض ... ثم عاد يقول سريعاً
كمن تذكر شيئاً هاماً :

— اسمع يا أندريه ! فى جيب معطفى قارورة

« هوييجان » من الصنف العالى ، اشتريتها عملاً

بنصائحك الغالية . ألا ترى أن أتعطّر منها قبيل اللقاء ،

إنها كفيلة أن ...

— المسألة ليست مسألة « هوييجان » !

— تريد أن تقول ...

فألقى أندريه نظرة أخيرة على شعر محسن ووجهه ،

ثم صاح فى نبرة مرحة :

— أريد أن أقول إن لك الآن وجهه عاشق

يستطيع أن يذهب تَوّاً إلى مواعده !
فنهض محسن وأتجه إلى چرمين الباسمة :
— أهو يخذعني ؟

فقلت چرمين للفور وهى تقدم إليه المعطف :
— إنه يقول الحقيقة . البس معطفك ، وانطلق
مطمئناً ، أيها الفتى السعيد !
فارتدى محسن معطفه ، ووقف أمام المرأة يتأمل
هيئته طويلاً :

— المسألة مسألة ذوق ! ما دام هذا المنظر يصلح
فى رأيك للذهاب إلى المواعيد ، فليس من الكياسة أن
أطعن فى ذوقك ! إلى الملتقى !

قالها وهو يتحرك إلى الباب رافعاً قبعته السوداء
فى الهواء ، وشيعه أندريه وزوجته إلى السلم وهما يقولان
باسمين :

— تشجع !

انتظر محسن الفتاة إلى أن جاءت ، وذهبا إلى
« بوكاردى » فتناولوا العشاء ، ثم خرجا إلى « الجران
بولقار » ، فشربا القهوة في أحد المشارب ، ودقت الساعة
العاشرة ، فنهضت سوزى طالبة العودة إلى مسكنها .
عند ذاك فقط أفاق الفتى وثاب إلى رشده . . . وأحس
نجاة الجوع . فهو لم يأكل شيئا في المطعم ، هو الذى
كان قد دخله جائعا ، خرج منه جائعا دون أن يشعر .
وهل كان فى مقدوره وهو إلى جانبها أن يفكر فى
أكل أو شرب . إن المعدة لتنام عندما تستيقظ الروح ،
إنه لا يذكر شيئا من أمره ، لكنه يذكر كل شيء
من أمرها هى ، يذكر حركة يديها الرشيقتين وهى
تتناول « الأوردور قارييه » ، ويذكر جمال فمها وهو
يشرب « البورجونى » ، ويسمع صدى ضحكاتها الرقيقة
الخافتة عندما كانت تراه يذهل عن الطعام بالرنو إليها ،

أو الكلام الطويل في أشياء لم يعد يذكر ما هي ...
ومرت الساعات كأنها اختلاجة من أهدابها ، وها هو
ذا قد حان وقت الافتراق عنها ! لا ، هذا مستحيل ،
أبهذه السرعة قد وصلا إلى باب النزل ؟ لماذا يقسو
القدر على الناس هذه القسوة ؟ إن الساعة لتطول كأنها
الدهر عندما تقع في كرب أو بلاء ، وأنها لتقصر كأنها
ابتسامة عابرة عندما نجتاز النعيم ! ولم يرع الفتى إلا
يدها تمتد إليه مودعة قبل أن تدخل النزل ...

— لا ، إن الوقت ما زال متسعاً ، ونحن ما زلنا في
أول الليل ، وعندى كلام لم أفض بعد به إليك ...
قالها محسن وهو محتفظ بيد سوزى في يده في
حرص وخوف ... فقالت الفتاة :

— إني لا أستطيع طبعاً أن استقبلك في حجرتي
الساعة ولا أن أصعد إلى حجرتك ، فافض إذن بما تريد
ها هنا الآن ، أو ... فلنسر قليلا في هذا الشارع ...

ومشياً جنباً إلى جنب في ذلك الطريق الطويل
ذى الأشجار الكبيرة ، إلى أن بلغا حدود « پورت دى
ليلاس » ، وعادا من عين الطريق إلى أن اقتربا من
ميدان « جامبتا » ، وفاجأتهما الأنوار فرجعا أدراجهما
يحتميان في ظلام الأشجار ، والفتى لا ينبس ، وهى
صامتة صمت من ينتظر منه الأفضاء بشيء ... وكأنما
عيل صبرها ، فقالت في صوت خافت رقيق :

— ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟

— كل شيء .

— إني مصغية إليك .

فأراد محسن أن يتكلم ، لكن الألفاظ هربت من
رأسه كما تهرب العصافير من الأقفاص ، إن لديه إحساساً
عارياً ، ولا ينبغي أن يظهره عارياً أمام سيدة ! لا بد له
من ثوب أنيق . فالمرأة يسرها دائماً الثوب الأنيق ،
وإن كان على جسم نحيل من عاطفة نحيلة . إن هذه الفتاة

لا شك تدرك ما عنده ، وهى لا تكتفى بذلك ، وهى
إنما تدمى قدميها سيراً فى هذا الليل لتسمع ألفاظاً يلذ لها
سماعها فى ذاتها ... فإذا تراها تفعل بمشاعر قوية فى
أطوار بالية ، وخشى محسن العاقبة ، وتغلب عليه الوهم
فقال كالهامس :

— لا ، لا أستطيع الآن ...

فقالت هى أيضاً كالهامسة :

— لماذا ؟

— غداً ، إذا شئت ...

— بل الآن .

فتردد الفتى لحظة ، ثم تمالك وانطلق انطلاق
الهارب الخائف ، الذى يريد أن يقنع عقله بالشجاعة
والثبات ، قائلاً كالمخاطب لنفسه :

— لست جديراً أن أقول لك ما أريد الآن ،

دعنى أبعث إليك غداً برسول عنى يحسن الكلام !

— من هو ؟

— الشاعر الأغريقى القديم « أنا كريون » ،

سأحضره معى عصر الغد عند محطة المترو ، وسيفضى

هو إليك بكل شىء !

الفصل الثاني عشر

كانت كل حياة محسن في الأربع والعشرين ساعة التالية : ترقب الموعد ، وإعداد نفسه وترويض لسانه وضبط أعصابه لمواجهة الموقف ... ، وجاء العصر فارتدى ثيابه في عناية وهم بالخروج ، ولكن الباب طرق عليه ، وظهرت خاد� المنزل تقدم إليه رسالة وردت « بالبريد السريع » . ففض الفتى غلافها بيد ترتجف ، وقرأ في لحظة واحدة :

صديق ...

أرجو منك أن لا تنتظرني هذا المساء ، في المكان المعروف ، فإنني سأبقى في العمل إلى ساعة متأخرة لم تكن في الحساب ، إذا كنت مع ذلك في مسكنك ، فإنني أمر بك عند منتصف العاشرة ، لأقول لك « بونسوار » م
سوزى

عاد الدم يجري إلى وجه الفتى ، وهدأ تنفسه ،
وانتظمت دقات قلبه . ثم خلع سترته وجلس إلى مكتبه
يفكر باسمًا ، ويتلو خطابها على مهل . ووقف عند كلمة
« صديقي » ، ثم عند قولها « فإني أمر بك » . فأحس
طرف أجنحة السعادة تمر به ، ورفع عينيه إلى ما حوله .
إنها ستأتي هنا بعد قليل . ما كل هذه الكتب
المكدسة في غير ترتيب . ينبغي أن يقر في الحال النظام
محل الفوضى . وقام من فوره إلى حجرتة ، يهيئها
للاستقبال العظيم .

وجاء الليل وانتشر الظلام في سماء شبه صافية تؤذن
بانهاء الشتاء ، ووقف محسن قرب النافذة ينظر إلى
النجوم المتألقة بأشعتها الزرقاء ، وأذنه مرهفة إلى الباب ،
في قلق ونفاد صبر ، وخيل إليه مرات أنه يسمع نقرأ
خفيفًا على بابه ، فكان يسرع إلى فتحه فلا يجد أحدًا .

لقد اختلط في رأسه الوهم بالحقيقة من طول التأمل
والانتظار . وسمع أخيراً طرقة هزت قلبه قبل أن تبلغ
رأسه . فأيقن أنها هي ... فأصلح من شأنه على عجل ،
وفتح الباب ... نعم ، إنها هي ... هذه المرة ... بقبعتها
ومعطفها وبقيّة ثياب الخروج ، ودخلت مبتسمة
كأنها زنبقة :

- لقد جئت توا كما ترى ، قبل أن أمر بحجرتي
آه .. أهذه حجرتك ؟ ... إنها جميلة ...
— الآن فقط ، أرى أنا أنها جميلة .
— ما كل هذه الكتب ؟ إنك تقرأ كثيراً . أتلد
لك بهذا المقدار الحياة في ...
— وأنت ؟
— إنى أفضل الحياة في ... الحياة .
— أنت أيضاً !
— لماذا تنظر إلى هكذا ؟

— أصبت . أرى الآن أنى على خطأ ، ما الذى
يعنينى من أمر حياتك أنت ، ما أنت إلا « حلم » يحيا
فيه ... الآخرون ...

— ومن هم الآخرون ؟

قالتها فى ابتسامة ذات معنى ، وأناملها تعبت
بصفحات كتاب فوق المكتب . وأرعى الفتى بصره ،
ولم يجرؤ على المضى فى الكلام ... ونظرت إليه لحظة
ثم قالت فى صوت خافت رقيق :

— إنى مصغية إليك .

فتذكر محسن البارحة ، وفطن إلى مرادها . فرفع
رأسه ، وقال :

— أسمحين لى أن أقدم إليك من يستطيع أن

يتكلم باسمى ...

— ذلك الشاعر الأغريقى الذى قلت لى عنه ...

ما اسمه ؟

— « أنا كريون » .

— نعم ، نعم ، أين هو ؟

فأشار بأصبعه إلى الكتاب الذي تعبت به :

— إنه بين يديك .

فضحكت ضحكة ساحرة ورفعت الكتاب تنظر

فيه . وبادر محسن فدلها على إحدى صفحاته وقال لها :

— إقرئي هذا !

فقرأت :

« إني أريد ،

أريد أن أحب ،

ولقد زين لي « الحب » أن

أحب ..

فأبيت من جهلي أن أصغى

إليه ...

فقبض من فوره على قوس

من ذهب ،

ودعاني إلى القتال .

فلبست له الحديد ،

وأمسكت بالرمح والدرع ،

ونفضت كأني « أشيل »

أنازل « الحب » .

فسدد إلى سهامها ،

حدث عنها فطاشت .

ونفدت سهامها ،

فتقدم إلى يتقد غضباً ،

وهجم على فاخترق جسمي ونفذ

إلى قلبي .

فانهزمت .

يا لها من حماقة أن أتقى

بدروع !

أى سلاح خارجى ينتصر
على « الحب » إذا كانت المعركة
قائمة داخل نفسى ! »

وفرغت الفتاة من القراءة ، ولكن بصرها بقى
جامداً على السطور ، وكان الفتى قد دنا منها يقرأ معها
من صفحة واحدة . فأحس شعرها المعطر قد انتشرت
خصلاته الذهبية على وجهه كما تنتشر أشعة القمر على
الكائنات ، ولم يذكر الفتى شيئاً عندئذ ولم يفتن إلا إلى
وجه سوزى الناعم الحار قد لاصق وجهه ، وكأنها تقبله ،
نعم ، إنها بين ذراعيه تقبله . هذا لا ريب فيه الآن ،
وهى حقيقة واقعة الآن لا وهم فيها ولا غموض ، ولم يدر
الفتى كيف حدث ذلك ، ولا ما يصنع بعد ذلك ...

آه لأولئك الخياليين عندما يُعطون فجأة :
« الحقيقة » ! نعم ، فجأة . أى قبل أن يترك لهم زمن

يسبغون فيه على تلك « الحقيقة » أردية الخيال الموشاة !
إنهم يتلقون جسماً غريباً ومادة عارية لا يعرفون ماذا
يراد بها . إن « الحقيقة » عملة لا تجوز في مملكة
« الأحلام » .

لم ينم محسن تلك الليلة . فقد كان وقع ما حدث
ذا دوى في نفسه . وجاء الصباح فأسرع إلى صديقه
أندرية يقص عليه كل شيء .

وابتسم الفرنسي لرواية الفتى وقال له :

— أرايت أنها فتاة ككل الفتيات ، وعاملة
كآلاف العاملات ! تلك التي أسكنتها قصرًا من قصور
ألف ليلة وليلة ، وجعلتها تنظر من عليائها إلى مواكب
الناس المتدفقة تحت شباكه . آه أيها الصديق ،
اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطراً مما كنت تتصور .
وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة لا تحتاج

إلى كل هذا الوقت ولا إلى كل هذه الخيالات
والتأملات !

فأحس الفتى إحساس من يهوى إلى الأرض ،
وكأن قيم الأشياء في نظره قد تضاءلت ، وكأن الحياة
نفسها قد تجردت من غطائها ، فبدت كتمثال مصبوب
من السخف . وشعر محسن بفراغ في مادة نفسه ،
لا يدري بعد اليوم بماذا يملؤه ...

وترك الفتى صاحبه وانصرف مطرقاً ، دون أن
ينبس بحرف ...

الفصل الثالث عشر

... ولكن للأرض لذاتها وآلامها . ولقد هبط

« آدم » الأرض ، فغمره نعيم وجحيم من نوع آخر

ومادة أخرى . وهكذا كان يستيقظ محسن بعدئذ كل

صباح على قبلات ملتهبة ، فيفتح عينيه ، فإذا موجة من

ذهب ذلك الشعر الجميل قد غطت وجهه ... وصوت

عذب يقول له :

— أوركوار !

ثم خطى قدمين صغيرتين تخطر على خشب الحجرة

وتتجه إلى الباب في شبه حركة راقصة ، ثم صوت الباب

يفتح ويغلق . ثم لا شيء . إنها ذاهبة إلى عملها ...

لم يكن لمحسن بعد ذلك من عمل إلا الاستمرار

في النوم إلى الضحى ، فلم يعد به حاجة إلى التبكير ، ولم

يعد صوت غنائها هو الذي يوقظه . إلى أن يكل من

النوم فينهض في تراخ ويرتدى ثيابه على مهل ، ثم يخرج إلى مطعم « الأوديون » بجوار المسرح ينتظرها فيه لتناول الغداء ، ثم يبقى معها حتى موعد فتح شباك التذاكر في منتصف الثالثة ، فيتركها ليعود إليها ساعة العشاء في ذلك المطعم ، ثم يذهبان وقد فرغت من عملهما إلى سينما الحى ، فيجلسان متلاصقين ، يتبادلان القبلات في الظلام ، كما يفعل من بجوارهم من عمال وعاملات . وتذكر محسن ذات مرة ملاحظته الأولى يوم رأى فتى فرنسياً يعانق فتاة في الطريق ، لقد حسب يومئذ أن في ذلك امتهاناً لقداسة الحب . أتراه يقول ذلك الساعة ؟ لا . ما الذى تغير ؟ لا شئ . إنه يجب دائماً ، ولكن طعم « الحب » هو الذى تغير . التفاحة هي التفاحة ، ولكنها تفاحة أرض جديدة ! تفاحة « الأرض » ... حلوة لكن داخلها الدود ! ولم يكن محسن يطيق إبطاء سوزى خمس دقائق عن موعدها ، ولم يكن يحتمل

رؤيتها تبتسم لأحد معارفها وهي تحنى رأسها بالتحية ،
ولم يعد يرى صورتها في أحلامه ممتزجة بأنغام
« الأترمتزو » و « رقصة الفراندول » ، ولكنه يراها
في نومه تعانق رئيسها « هنرى » الذى عرف منها بعض
أخباره ، أو يراها تقبل شابا زنجيا تلك القبلات الملتهبة ،
فينهض منزجاً مضطرباً يود لو يمزق جسدها بأسنانه .

وجلس محسن ينتظرها ذات مساء فى ذلك المطعم
الذى يؤمه ممثلوا الأوديون وفنانوه ، ومضت ساعة
محيتها ولم تظهر بالباب ، فاخفى الابتسام من وجه الفتى ،
وذهبت رغبته فى الطعام ، وود لو ينهض ويخرج
ويركض هارباً حتى تأتى ولا تجده ، وخامرته الشكوك .
ولم يستطع أن يقبل فى أمرها عذراً . وحكم عليها فى
نفسه حكماً قاسياً ، وتمنى لو يحطم شيئاً . حقيقة يدها ،
أو طبقاً من هذه الأطباق . ولكن الباب فتح فى

تلك اللحظة وبدأت سوزى مسرعة إليه . وكأنها قرأت
في وجهه كل ما في نفسه فبادرت تقول :

— أبطأت عليك قليلا ، أردت أن أحصل على
تذكرة دعوة للحفلة الأولى من الرواية الجديدة ...
لأقدمها إليك !

وأخرجت من حقيبة اليد رقعة من الكرتون
أعطتها إياه ، فأخذها ... ولكن الهدوء لم يستقر في
نفسه . فقال لها في صوت حار :

— إنني أحبك إلى حد مخيف ... إلى حد الرغبة في
أن أنهال عليك ضرباً .

فقالت مبتسمة وهي تفحص قائمة الطعام بعينها :

— هذا مخيف حقا . ماذا طلبت من الأكل ؟

— إنني أحبك . أحبك كثيراً .

قالها كالمخاطب نفسه وهو يفحص بعينه خصلات
شعرها المتهدل تحت القبعة ، وجاء خادم المحل يتلقى

الأمر . فطلبت الفتاة ما اختارت من بين الألوان .
والتفتت إلى الفتى الساهم ، كما التفتت إلى الخادم ،
وصاحت به :

— عجبا ! ماذا تريد أن تأكل ؟

فرفع الفتى بصره كمن ثاب إلى رشده ، وتناول
بطاقة الطعام وهو يقول :

— ماذا آكل ؟ لست أدري ؟ أشيرى على أنت ،
فإني لا أستطيع أن أعصى لك أمراً !

فطلبت له مثل ما طلبت لنفسها . وانصرف الخادم ،
والتفتت هي إليه :

— ماذا بك ؟

— لا شيء . ما أشد الحرارة داخل هذا المكان !
إني أحس العطش ...

وسكب قليلا من الماء في كوبه ، وجرع منه

جرعتين ، وقالت سوزى وهى تبحث عن كوبها الذى
لم يوضع بعد على المائدة :

— إنى أيضاً أحس العطش ...

وتناولت كوب محسن وشربت من الموضع الذى
شرب منه الفتى ، وهى تنظر إليه باسمة . ورأى الفتى
ذلك منها . فقال فى صوت خافت نارى متقطع كأنه
هم متطاير :

— بى .. رغبة هائلة .. فى أن .. أقبلك الآن !

فضحكت ضحكة رقيقة كلها دل . ونظر محسن

خلصة إلى من حوله فى المحل . ثم مضى يقول :

— لا أستطيع ، فلا أقنع الآن مرغما بالشرب من

الموضع الذى مس شفتيك ... كما فعلتِ معى .

ورفع الكوب إلى شفتيه ...

الفصل الرابع عشر

عاش محسن حياة « الواقع » ، يأكل ويشرب
وينام في « الحقيقة » . ولم يفتن إلى كتبه المغلقة منذ
تلك الليلة . ولم ير فوق أكداسها غير بضعة دبايس
شعر للسيدات ، وعلبة « بودرة » قد تناثر منها مسحوقها
الحمري النحاسي في لون الأجسام الرخامية التي عانقتها
الشمس على شاطئ البحر . ذلك اللون المحبوب من
من الباريسيات في ذلك الوقت . نعم ، لم يعد البياض
الناصع لون السحب هو المثل الأعلى ! إنما هي الحمرة
الحارة لون الصلصال المحترق !

وتلاقى محسن وسوزي على مائدة المطعم هذا المساء
مبكرين ، فالليلة الحفلة الأولى للرواية الجديدة ، وقد
جاء للتمثيل فيها الممثل الشهير « دي فيرودي » .

وكان الفتى بامم الشعر ، منشرح الصدر ، يلتهم

طبق « البفتيك » في نشاط ظاهر ، ولحظته الفتاة قليلا
وابتسمت قائلة :

— أرى أن لك اليوم شهية للطعام !

— إن « البفتيك » لذيذ . ولكنى مع ذلك ...
مسرور لسبب آخر .

— ما هو ؟

— إني مدعو إلى الحفلة الأولى في ثانى مسرح
بباريس ! إنها المرة الأولى التى يقع لى فيها ذلك ...
وهذا بفضلك ... إني نخور بك !

— هذا شىء لا يدعو إلى الفخر !..

— لا .. إنك ..

— لا تقل شيئاً ... كل بغير أن تتكلم ، يا بينغائى
الكبير . !

— آه ! بينغائك الكبير ، كم أغبط ذلك الآخر
الصغير ! إنه فى قفصه فوق نافذتك أكثر حرية منى
بين يديك !

— قلت لك لا تتكلم حتى تفرغ من طبقك . إني
أعلم أن لا شيء يذهب شهيتك دائماً مثل الكلام على
المائدة ! استمع أنت ، وأنا أتكلم ...
— نعم ، تكلمى أنت ...

وعكف محسن على طعامه ، وأرادت سوزى أن
تفتح فيها بالحديث . ولكن الباب فتح ، وظهر شيخان
ابتسما للفتاة في تحية من رأسيهما ، وجلسا إلى إحدى
الموائد ، وقد هرع إليهما مدير المحل وغلماؤه ، ورأت
الفتاة علامة الاستفهام على وجه الفتى فأسرعت تقول له
هامسة :

— أتدرى من هذا الشيخ القصير ؟

— من هو ؟

— مسيو « دى فيرودى » نفسه .

فرفع محسن رأسه ينظر إليه في عجب وإعجاب ،
ثم قال هامساً :

— هذا « دى فيرودى » !

— إنه مثال الوداعة وطيب الخلق .

— ومن هذا الشيخ الضخم الذى معه ؟

— عجيباً ، ألم تره من قبل ؟ هذا مسيو « سيلقان » !

— « سيلقان » العظيم !

ونظرت سوزى إلى طبق محسن ، ثم قالت فى الحال بلهجة الأمر :

— والآن ، الكلام ممنوع يا بىغائى العزيز !

— نعم .. تكلى أنت ...

وعاد الفتى إلى الأكل ، وجعلت سوزى تتحدث :

— أتعرف أن زوجة مسيو « سيلقان » تجيد طهى

« البويايس » ؟ وأن مسيو « هريو » وزير المعارف

وهو الصديق الحميم للممثل « سيلقان » لا يستمرى أكل

« البويايس » إلا من صنع « مدام » سيلقان العجوز !

إسمع هذا : فى الشهر الماضى ...

ولم تتم . فقد فتح الباب ، وظهر شاب فرنسي
جميل الطلعة ، ما كاد يقع بصره على سوزي إلى جانب
محسن حتى تغير وجهه ، وما كادت تراه الفتاة على هذه
الحال حتى تغير وجهها وانقلب كل شيء فيها رأساً على
عقب ، وشعر محسن في تلك اللحظة أن مصيبة نزلت
به ، لا يدري بعد ماهي ، وجلس ذلك الشاب إلى خوان
قريب ، ووجهه في وجه الفتاة . . . لكنه أطرق
وجعل كأنه لا ينظر إليها ، ووضع عينيه في « قائمة »
الطعام . . .

وأطرقت سوزي كذلك . وكانت قد فرغت من
الأكل فلم تدر ماذا تصنع . وقلق محسن فسألها :
— ماذا دهاك ؟

فلم تجبه ، ولم تلتفت إليه . وأومأت إلى غلام المطعم
فاقترب منها فقالت له :

— مجلة « الأستراسيون » من فضلك !

فأسرع الخادم وأحضر إليها الصحيفة المصورة التي طلبتها . فتناولتها ونشرتها بين يديها وجعلت تتأمل صورها في صمت ، كأنها غير حافلة بوجود محسن إلى جوارها . وأحس الفتى منها ذلك . فغلى الدم في رأسه وقال لها بصوت هامس يقطر مرارة :

— أهذا هو صاحبك « هنرى » ؟

فلم تجب . فمضى يقول :

— لما ذا تسكتين الآن عن الحديث معي ؟

فلم تجب . فقال :

— أريد أن أعلم معنى اهتمامك الآن فجأة بهذه المجلة

وهذه الصور ؟ !

فلم تجب . فقال :

— تريد أن تفهميه في بساطة أنى إنسان لا خطر

له عندك ، وأنتك تتناولين معي العشاء عن غير رغبة أوسرور .

فلم تجب . فقال ذاهب الصبر :

— وبعد ؟ ألا تقولين كلمة ؟ لقد قضى الأمر إذن

ولم أعد ببغائك العزيز ؟ وأنت ما عدت تحرصين على

شهيتي للطعام أو الشراب ، والإقبال على تحديثني كما

كنت الآن تفعلين ؟ .

فلم تجب . ولم ترفع رأسها . ومضت تقلب الصور

فقال في غضب مكتوم ساخر :

— ثقي أن خليلك قد اقتنع الآن كل الاقتناع أنك

تفضلين قتل الوقت بمطالعة المجلة على الحديث مع مثلي .

نعم ، لقد فهم الآن أني لا أساوى شيئاً في نظرك !

فلم تقل شيئاً . فقال :

— لعلك تريد أن يفهم أكثر من ذلك ، فيرى

أنى لست أكثر من معجب مفتون من أولئك المغفلين

الأجانب الذين ينفقون على الغايات ويتقبلون في رضا

إعراضهن وإهملهن وازدراءهن !

فلم تجب ولم تتحرك ، فقال :

— إنك تحمِلينني من الإِذلال ما لا أطيق ! نعم ،
ينبغي أن أقول لك أن ما تصنعين بي الآن لكثير ،
وليس الذي يعنيني من الأمر هذا الحب الهائل الذي
ظهر فجأة الساعة فسحرك ، وجعل منك تمثالا من
الشمع . فأنت حرة في شئون عواطفك . ولا يدفعني
إلى هذا الكلام ألم أو غيره ، حقيقة أن حالي الآن
لا يدعو إلى الاغتياب والارتياح ، ولكني أنا أيضاً حر
في شئون عواطفى . ما أسألك عنه الساعة هو أن
تفكرى قليلا في أمر موقفى ، وأن تنقذى على الأقل
المظاهر ، وأن تعامىنى فى شىء من البر والكرم ، وأن
لا تجعلينى ذليلا أمام حبيبك أو خليلك . إلا إذا كنت
تقصدين ذلك ، وكان هذا هو السبيل الذى ترتفعين به
فى نظره وتصلين به إلى عنايته وحسن التفاته . وبعد ؟
ألا تقولين شيئا ؟ أمصرة أنت على هذا الصمت المهين ؟

إذن ... ليس في وسعي الآن مع الأسف العميق إلا
أن ...

وأوماً إلى الخادم فجاء ، ودفع إليه سريعاً قيمة
« الحساب » كله ، ثم نهض قائلاً :
— وداعاً ياسيدي !

ومضى على عجل دون أن ينظر إليها ، وخرج من
المطعم خروج آدم من الجنة ...

الفصل الخامس عشر

قبع محسن في حجرته ، مهبط النفس ، جريح القلب . وجعل ينظر إلى كل شيء حوله كمن ينظر إلى شيء غريب . نعم ، لقد فقد هذا المسكن معناه . وهذه النافذة ، ما عادت تشرف الآن على ذلك الهناء ... وإن صوت الغناء العذب المتصاعد من النافذة السفلى ليس الآن غير طعنة طويلة تنفذ إلى سويداء فؤاده . فهي إنما تغني دائماً للآخر . إنه مازال يسمع في الصباح عين الأغنية من « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمي

لا يعرف أبداً قانوناً »

هذا صحيح . وهو الآن يلتقي جزاء اللعب مع ذلك الطفل البوهيمي ! إنه لم يعد يسمع حتى صوت نداءها للبيغاء الصغير . إن اسم « محسن » قد اختفى من فمها ،

على الإطلاق ، وخطر للفتى أن ينظر إلى قفص البيغاء
فوق نافذتها . فأطل من نافذته ، فأخذه الروع . لم يجد
قفصاً ولا بيغاء ، أين العصفور ؟ أين « محسن » الآخر ؟
لا يدري مصيره هو أيضاً ، لعلها قذفت به كذلك إلى
عرض الطريق . وحزن الفتى لتلك الفكرة . . .

ومرت ساعات ، ومرت أيام ، ومحسن يعيش في
ألمه ، كما يعيش الجريح في دمه . وخطرت له خواطر
وطافت به هواجس . وانتهى من تأملاته الطويلة إلى
عزم : أن يراها ويحدثها مرة أخيرة . آه للمحبين
المدحورين ! كم يعلقون الآمال على ما يسمونه « المحادثة
الأخيرة » ! إنهم لا يريدون أن يفهموا أن الشرح والمنطق
والتفسير والايضاح وكل وسائل الفكر والعقل أشياء
لا تفيد في مسائل القلب . وأن النعيم والجحيم إنما تفتح
أبوابهما وتوصد على شبه ألفاظ سحرية لا معنى لها :
« افتح يا سمسم ، اغلق يا سمسم » !

وسمع الفتى ذات عصر صوت غنائها ، وعلم أنها في
حجرتها ، فتجلبد وذهب إلى بابها وطرق طريقة خفيفة
خجلة . ففتحت . وما إن رآته حتى عادت فأغلقت في
وجهه الباب في هدوء ، بغير أن تلفظ كلمة . . .

فرجع الفتى أدراجه احمر الوجه من أثر تلك الصفعة .
وجلس إلى مكتبته وأخفى رأسه بين كفيه . . .

ومرت عليه ساعات أخرى . وفكر مرة أخرى :
لو أنه استطاع فقط أن يكلمها ويفهمها . . .

وحاول في اليوم التالي أن يعيد الكرة . فطرق
بابها مرة ومرة ، فلم تفتح له . وتوسل إليها أخيراً من
خلف الباب أن تصغى إليه خمس دقائق ، يخرج بعدها
ولا يعود . بل إنه يعدها بترك المنزل كله والمضى بامتعته
إلى حيث لا تعلم . لكنه لم يتلق جواباً ، فهي سماء
صماء لا يصل إليها دعاء ، وهو عبد طريح على أرض

الشقاء ، قد ارتكب خطيئة لا غفران لها ولا يدري
ما هي ؟ !

وحدثته نفسه أحياناً بالثورة . وود لو تنقلب كل
ذرة من ذرات حبه إلى قنابل تتساقط محطمة ذلك الشيء
الجميل الذي كان يسميه « سوزى » ولكن رباعية من
رباعيات الخيام وقعت فجأة تحت بصره وهو يقلب
الكتاب بين يديه لاهياً حالماً :

« إن أردت أن تسلك

طريق السلام الدائم

فابسم للقدر إذا بطش بك

ولا تبطش بأحد ! »

نعم ، فليبسم ، على الرغم من كل شيء . حسبته أن
قد ظفر بلحظة من ذلك النعيم الذي كان يجهله . نعم ،
إن تلك المرأة استطاعت أن تكشف له عن جانب
من جوانب الجنة المجهولة في كيانه . . . فليكن من

أمرها ما يكون ، فهو الآن يعلم بفضلها ما لم يعلم ... « جنة الأرض » هي التي أعطته مفاتيحها ، وأذاقته رحيقها ، ووضعت شفقتها إلى جوار شفتيه على حافة ذلك الكوب البلورى من الكوثر الأرضى ...

لكنها قد طردته .. فما مصيره ؟ أيعود إلى السماء ! ؟ وترك مجلسه ، واقترب من نافذته ، وأطل منها على نافذتها السفلى فوجد لها موصدة ، وليكن الضوء ظاهر من زجاجها ، فهي في حجرتها ذلك المساء . لكن كيف السبيل إليها ؟ إن بابها المغلق في وجهه لا تخترقه صلاة ولا يفتحه بخور . إنها الآن في حجرتها كإله في سمائه ، قد احتجب بالسحب واعتصم بالشهب ، فلا يدرى أحد كيف يدنو منه . وتأمل محسن السماء طويلا من نافذة حجرته العالية وقال متنهداً :

« آه أيتها السماء السابعة ،

إنى أراك وأحادثك ،

من هذا الطابق الخامس ،
أما فاتنتي التي كانت دانية مني ،
فهي نائية ، نائية الآن عني ،
آه ، ... لو انها كانت فقط
في السماء السابعة ؟
لكنها ... في الطابق الرابع !!

الفصل السادس عشر

سيدتي ...

لم يكن بد من أن أكتب إليك هذا الخطاب .
إطمئني . لن أطلب فيه شيئاً . ولن أرجو منه شيئاً . إني
لست أخدع نفسي ، ولست أجهل حقيقة الأمر . إني
منذ دخل المطعم مسيو « هنري » ولحظت كيف تغير
وجهك ، فهمت في الحال أن ساعاتي عندك أمست
معدودة . ولعل كلماتي التي وجهتها إليك ذلك المساء لم
تكن إلا صيحات التشبث بالحياة . فإن كنت قد جرت
في القول ، وانطلقت بكلام أغضبك ، فإنني أطمع دائماً
في أنك تصفحين ، كما صفحت ولا ريب الملكة الجميلة
« سميراميس » عن زلات لسان « أسيرها » يوم دعتـه
إلى ليلة من ليالي النعيم ، مهدت فيها الفرش وأقيمت
الموائد ، وقدمت « أطباق البفتيك » . وتلاقت الشفاه

على الأكواب ، وفاح عطر ال « هوبيجان » من
أعطاف الثياب ، وانتثرت خصلات الذهب على الوجوه
إلى أن لاح الصباح ، فتغير وجه الملكة الجميل ، ووضع
الأسير في الأغلال ، ومُشى به إلى الموت ، وهو ذاهل
ما زالت في رأسه بقية من نشوة الليل .

إن الذي كان يلطف من غير شك وقع الأمر على
ذلك الأسير أنه كان يعلم أن الملكة تلهو ، وأن الجلال
سيستقبله على باب مخدعها في الصباح . فهو لم يغتر ، ولم
يغيب عن عينه السكرى سيف المنية يبرق من خلف
الكوؤوس .

ولكن ملاكات العصر الحديث يفعلن بأسراهن
غير ذلك . كل شيء عندهن مستتر مقنع ، « فهي » تضع
على وجهها ذلك القناع الحريري الأسود الذي يلبس في
« المساخر » ، وتجر خلفها « أسيرها » وهو مسحور بجمال
عينها الفاروزيتين ، ترهزان في السواد كأنهما نجمان بازغان

في صدر الليل ! وتسير به إلى خلوة يقرآن فيها صفحات
الحب منفردين ، ويلتصق فيها الوجه الحار على الوجه المورّد ،
ثم تجذبه إلى ضجيج الناس والطرقات ، وقد خيل إليه في
هذا الحلم أنهما في « فينيسيا » أيام « الكرنفال » وكان
كل شيء حولهما راقص . وكان على رأسيهما تلك التيجان
من « الكرتون » الفضي الذهبي .. وكان حبال الورق
« السربنتان » الخضراء الحمراء تشد جسميهما ، أحدهما إلى
الآخر في رباط ، خيل إلى الأسير وهو غارق في أحلامه
أنه وثيق لن ينقطع . ولبشا هكذا مرتبطين بتلك
« الحبال » يذهبان بها في كل مكان : في المطاعم حيث
« البورجونى » المعتق ، وفي السينما حيث القبلات في
الظلام ! عجباً ! أكل هذا لم يكن حباً ؟! من قال ذلك ؟
ومن أذن للأسير في أن يشك ؟ حقيقة أنه لم ير كل ما خفى
من وجه « الجميلة » فهي لم تخلع بعد قناعها . لكن
ماذا يهم ؟ إنه يؤمن بصدق هاتين الفاروزتين اللامعتين !

وجاء الصباح . وطلعت الشمس . وغارت النجوم
وأفاق ذلك الحالم ، فلم يجد حوله أحداً ، غير كناسى الطرق
يكنسون بقايا الكؤوس المحطمة والتيجان الممزقة ،
وأكوام « حبال » الورق ذى الألوان ، التى كان يحسبها
قديرة على أن تربط الأجسام طول الأعوام ، أين
ذهبت « الملكة » ؟ لا يدري ! كل مابقى منها هو قناعها
الحريرى الأسود ملقى تحت أقدام المائدة .

آه ياسيدتى ، لماذا فعلت ذلك ؟ ولماذا لم تخبرينى
« بشروط » اللعب من أول الأمر . لو انى عرفت هذا
الوضع للأشياء ، لهان كل هذا . ولكن المريع فى
الأمر أنى أخذت كل شئ على سبيل الجد .

إن من السهل على عقليتى الشرقية البسيطة أن
تعيش فى الأحلام كما تعيش فى الحقائق ، وإنها لتأبى أن
تؤمن بانهييار الأشياء بمثل هذه السرعة !

لقد كنت أنت من غير شك تعاملين أن هذا

كله ليس سوى عبث لن يدوم طويلاً . ويوم كنت أعتقد
أنا انى إنما أحياء فى جنة الأرض الجميلة ، كنت أنت
تعرفين انى إنما أحياء فى مهزلة مبتذلة سخيفة .

لقد هبطت الأرض صافى النفس نقي القلب ، كما
هبطها ذلك الإله الهندى « ماهادويه » الذى تروى
خبره الأساطير الهندية : لقد نزل إلى لأرض كرجل
من الرجال ، يرقب أعمال البشر بين البشر . فقابل فتاة
جميلة حياها فحيتته ، وسألها عن أمرها ، فقالت إنها
راقصة من راقصات المعابد ، ورفعت « صفقاتها » بين
أصابعها ورقصت له ألف رقصة ورقصة ، ثم ركمت
أمامه وقدمت له أزهاراً ، وقادته إلى مسكنها . وهناك
جعلت تعنى به ، جاهلة حقيقة أمره ، وتكشف له عن
قلب نادر نبيل على الرغم مما يحيط به من أدران . وعاشا
فى سعادة الأرض ، الزمن الذى تسمح به سعادة
الأرض ، وفى ذات صباح استيقظت الفتاة فوجدت

حبيبها إلى جانبها ميتاً . فبكته بكاء مرّاً . وجاء الناس
والكهنة وأحرقوه كما يفعل الهنود بموتاهم ، فأسرعت
الفتاة وألقت بنفسها إلى جانبه في اللهب ، فأصعدها معه
إلى السماء !

تلك قصة الفتاة الهندية ، أما الفتاة الأوروبية
اليوم فإنها تفعل غير ذلك . إنها أعقل من أن تلقى نفسها
في اللهب من أجل الذي تحب . أما من لا تحب ، فهي
تعرف كيف تجعله هو اللهب وهو الخطب الذي يلقي
في المدفأة ، كي ينشر الحرارة في مسكنها المغطى بالجليد .
خيل إلى ياسيدتي حقيقة أن ريحاً باردة قد هبت على
ما كان بينك وبين مسيو « هنري » في يوم من الأيام .
وكان ينبغي أن أدرك أن قلبك يومئذ كان في حاجة إلى
الدفع ، وكان ينبغي أن أعلم أن المكان المعد لي إنما
هو « الموقد » ! وأن هذا الوقود « الحى » ينبغي أن
يبقى حتى يحترق بأكمله ، ويصبح رماداً ، وتنتهى مهمته ،

فتكنس ذراته وتطرح في الهواء !

لست أحب يا سيدتي أن أتهمك « بالأنانية » ،
ولكن عتبي عليك لا يعدو أمراً واحداً صغيراً : كان
يحسن بك أن تخبريني بمهمتي حتى أحترق على علم . وأفيد
الغير عن رضا . ولكنك شئت أن تسخرى بي من تحت
« قناعك » حتى تكون لك المتعتان .

لا تحسبي أني حانق عليك . على النقيض . إن من
حقك أن تصنعى الذى صنعت ، فالحياة عندك متاع .
وإني أحب لك السرور من أعماق قلبي ، واني لست
نادماً على ذلك القلب الذى قدمته إليك فى احترام ،
فألقيت به فى المدفأة . إنه لك على كل حال . إنه كان لك
تفعلين به ما تشائين . وقد فعلت به ما شئت . إنما الذى
يؤلمنى الآن : هو حياتي بعد ذلك . لقد أسرفت فى
الخيال . فجعلت منك كل جنتي . وعشت هذا الخيال ،
وليس من الهين علىّ أن أعيش من فوري فى شيء

آخر . إني مثل ذلك « الملحد » الذي طرد حديثاً من
حظيرة « الإيمان » فتشرد بعد ذلك « بقلبه » لا يدرى
أين يُسكنه . . . مثله مثل صعلوك من صعاليك الحياة ،
إذا طلع النهار انساق إلى ترهات العقل ، حتى يحن
الليل ، فيأوى « بقلبه » إلى حيطان « العقيدة » ينطرح
فوق الأفاريز .

شأنى الآن هكذا . أعلم أنك الآن شيء بعيد عني

بعد النجوم ، ومع ذلك ما زلت أعيش معك

منذ تلك الليلة الحاسمة في المطعم إلى اليوم ، وأنا لا أنام
قبل أن أسمع صوت المصعد يقف على « طابقك الرابع »
وأصغى إلى صوت قدميك الصغيرتين تخطران في ذلك
الممر الطويل إلى أن يفتح بابك ويفلق فاعلم أنك قد
عدت ، فأسرع إلى نافذتي أنظر إلى الضوء المنبعث من
زجاج حبرتك . وأظل على تلك الحال ساهراً حتى تطفأ
أنوارك وتنامين ، عندئذ تنام عيني ، كأنما أنت التي تأذنين

لها في النوم . لا تحسبي ما أقول مبالغة مني . لا . إن
كثرة الترقب واعتياد التربص ، قد أكسبنا أذني مراناً
غريباً ، على سماع أصوات المصعد والخطوات والأبواب ،
مهما دقت ومهما اختلطت . إني بأذني أستطيع الآن أن أميز
وقع خطواتك من بين مئات . إني لم أر وجهك منذ
تلك الليلة لأنني لا أجروء على النظر إليك . ولكنني أقنع
بعالم الأصوات التي تصدر عنك وتصلني بحياتك اليومية ؛
العجيب في الأمر أنني أعلم أن كل هذا حق غير مجد ،
ومع ذلك أفعله . وأعجب منه إني أحصى عليك خفية
كل حركاتك ، فأعلم أنك تلك الليلة سهرت أكثر مما
ينبغي ، لست أدري أين ؟ والليلة التالية عدت مبكرة ،
لست أدري لماذا ؟ معذرة ، هذا السلوك المعيب مني ،
إنما أنا رجل شريد طرد من قصر « الحب » السحري ،
فهو يلجأ في يأسه إذا جن الليل إلى الحيطان والأفاريز !
ولقد فكرت بالفعل في ترك هذا النزول . والانصراف

إلى شأني . وربما فعلت ذلك في يوم قريب . لكنني حتى
الآن لم أقو على ذلك .

إني أفهم الآن موقف آدم عقب إخراجه من جنة

السماء . إني أتخيله قد لبث بغير حراك في الموضع الذي

هبط فيه ، ومرت به ليال وأيام وهو ينظر إلى السماء ،

يرقب كل حركة فيها . إذا رعدت فهي صوت أبوابها

تفتح لتناديه من جديد ، وإذا لمع البرق فهي ابتسامة رضا

قد يعقبها انفراج المحنة ، وإذا تساقطت الشهب فهي

همسات غضب مازال قائماً ، وإذا استدار البدر فهو شفيع

وبشير بعودة الهناء القديم ، وكر الزمن وآدم يتمرغ

في مكانه بين اليأس والرجاء عند ذلك المهبط من الأرض

يمسح وجهه بأعتاب النعيم . إلى أن انتزعته غريزة

« الحياة » من هذا القنوط الطويل ، وأرغمته على

النهوض ، فقام يدب في الأرض ويعيش كما تعيش

الأحياء من المخلوقات .

إني لست أعرف كم لبث آدم في الجنة من زمن ،
وإني لأتوق إلى معرفة ذلك . ولكن الذي أعرفه على
التحقيق : أن جنتي أنا دامت أسبوعين ، حسبتهما حساباً
دقيقاً ، بالساعة والدقيقة . منذ الليلة التي ذهبنا فيها معاً
إلى مطعم « بوكاردى » ، إلى الليلة التي خرجت فيها
وحدى من مطعم « الأوديون » . أسبوعان من النعيم ،
هما كل زادى ، وكل كنزى .

وبعد ... فاني قد أطلت عليك كثيراً . وليس من
حقى أن أسلبك كل هذا الوقت لتطالعي حماقاتي . وليس
من حقى كذلك أن أنتظر منك رداً على هذا الخطاب
الطويل . فحسبي منك برا وكرماً أن تقرئيه في ساعة
فراغ ، إنه على أى حال نوع من اللهو ، وهو على كل حال
صائر إلى « المدفأة » ! .. وإن كنت أرى أن « الشتاء » قد
انقضى فقد ظهرت عندك بشائر الربيع . أمس رأيت على
نافذتك آنية ييسم فيها زهر « الكرز » في أغصانه

الرفيعة الأرجوانية . فذكرت أغنية « سان سانس » :

الربيع جاء

يحمل الرجاء

إلى قلوب العشاق

ما أ كذب هذا الشعر ! هذا الربيع ، على غير أمل
الناس فيه ، إنما هو الذي جاء ينتزع الرجاء ... ومع ذلك
فإنني أستقبل بوجهي نسماته العاطرة ، ولا أرجو منه
شيئاً كما يفعل الآخرون ، إنني أخشاه كما خشيه « حافظ
الشيرازي » :

حي نسيم الربيع

قادني إلى الصـحراء

لقد حمل إليّ النسيم عطره

لكنه أخذ مني راحتي

إلهي ! إن هذا الجمال

الذي لا قلب له

ليفعم بالأسى قلوب عشاقه !

بالأس مس الكوب شفتيها

وقال : إنه يعطى الحياة !

فقلت : لابل هي التي أعارته الحياة

ومع ذلك ، لو انى أمامها

مت محترقا

لما أطفأت لهي بأنفاس شفتيها

ما أصدق هذا الشعر ! كل كلمة فيه كأنها عاشت

حياة آدمية !

أخيراً استأذنك في طرح القلم ، فإن الفجر قد

بدا من النافذة ، وأخشى أن تغضبي لمجرد أنى اختلست

طيفك ليلة ؛ .. أرجو مرة أخرى أن تغفرى لى هذه

الثثرة . فأنا لست خيراً من « محسن » الآخر فى

شئ . أعنى « الببغاء الصغير » ! إنى لم أعد أرى قفصه

فى نافذتك . فلعله حى يرزق . إنى أيضاً حى أرزق .

لقد تحققت أمنيته ، وتساوينا في عين الحظ والنصيب :
« الببغاء الكبير » و « الببغاء الصغير » . ألا تذكرين ؟
إن كل ما يحزنني من أمر « محسن » الصغير إنه هو
أيضا ، وقد أصبح بعيداً عنك ، لا يستطيع هو أيضا
أن يحبك كل صباح بذلك الصغير المعتاد مررداً :
« أحبك . أحبك . أحبك »

« محسن ... »

الفصل السابع عشر

صديقي . . .

على الرغم من خطابك الذي وجهت إليّ فيه كثيراً
من اللوم ، فإنني ما زلت أدعوك « صديقي » . أو لسنا
صديقين ، ما دمنا نشكو من عين الداء ؟ إني لم أستطع
اليوم منع نفسي من الرد عليك . بل لقد هممت فعلاً
بزيارتك هذا الصباح . غير أن خطابك ، وما فيه من
صواب ، وما جاء به من عتاب ، قد أشعرني بقبح موقفي
طول الأسبوعين « المعروفين » . ولقد عدت إلى حجرتي
بعد تلاوة كلماتك وأنا حقيقة متألمة . ولقد وددت لو
اني لم أعش قط هذين الأسبوعين . إني خجلة . ولا
أستطيع أن أقابلك وجهاً لوجه . كيف السبيل إلى محو
كل هذا من ذاكرتك وذاكرتي ؟

نعم ، لست أنكر ، إني كأمرأة تحب بكل
جوارحها ، قد كنت حقا « أنانية » . إني فكرت
بالفعل ذات يوم في أمر تصرفاتي ، وتنبهت إلى ما فيها
من ضرر وشر ، ولكنني مع ذلك أقدمت على هذا الشر ،
آملة أنك لن تعجز عن الانفصال عني ، ... نعم ، أرجو
أن تثق كل الثقة أنني عند ما فكرت في كل هذا لم
يخطر لي قط على بال أن الأمر سيصل بك إلى مثل
هذا اليأس .

صدقني إني محزونة حقا لهذه النتيجة . وإني من
أعماق قلبي أبدى لك شديد أسفى .
لكن ... ما عساي أستطيع أن أفعل لأنال الصفح ؟
إن آلامك تترك في نفسي ألما عميقا . وأرجو
منك أن تثق بذلك .

وبعد أتقبل مني أن أمد يدي وأصافحك .. ؟
سوزى ديپون ...

حاشية — سألتني عن « البيغاء » الصغير ، وقلت
إنك لم تعد ترى قفصه في نافذتي ، هذا صحيح ، إنه ليس
عندي الآن ، فإن أمر طعامه وشرابه والالتفات إليه
لما يحتاج إلى وقت لا أستطيع أن أكرسه له ، فسمحت
لنفسى أن أهديه إلى « كلوتيلد » حارسة المقاصير ،
وقد أوصيتها أن تعني به كل العناية ، فكن مطمئناً

« س ... »

الفصل الثامن عشر

ترك محسن مسكنه في نزل « زهرة الأكلasia »
واستأجر حجرة في النزل الذي يقطنه صديقه إيثانوفتش
وكان الروسي قد اشتدت عليه وطأة المرض . فلم يشأ
الفتى إزعاجه بكثرة الكلام ، فلزم هو أيضاً حجرته ،
لا يخرج منها إلا في الصباح ، يقطع شوارع الحى صامتاً
ثم يعطف على باعة الماء كولات يوم السوق ، فيشتري
« كيلو جراماً » من الأرز وموزة واحدة ، يعود بهما
إلى حجرته حيث يهيئ غداءه بيده . ذلك شأنه أكثر
الأيام . فقد نضبت موارده من طول الإتياف في المطاعم
الجيدة ودور السينما والمشارب ، وهو الآن لا يستطيع
حتى تناول الأكل في مطعم الحى الحقير . إنه الآن يدفع
ثمان الأسبوعين اللذين قال إنهما « كل زاده وكل كنزه »

والذين قالت « هي » : « إنهما شيء تتمنى لو يعجى من
ذاكرتها ، وتود أنها لم تعيشهما !

ووقف الفتى أمام النار في أحد أركان حجرتها ،
يرقب فوران الماء في آنية الأرز « الألو منيوم » ، وهو
صامت مفكر . شأنه في كل يوم من تلك الأيام التي
مضت كأنها أعوام ، يتبخر الماء فيصب غيره في
الأناء ، ويتبخر فيصب غيره ، والأرز لا ينضج ،
فيأكله آخر الأمر شبه حصي . ما من مرة نضج معه
هذا الأرز . وما من مرة خطر له أن يسأل أحداً في
طريقة طهيهِ ، أو يغير هذا اللون من الطعام . لماذا يفعل
ذلك ؟ ليس للأكل الآن مذاق في فيه . وإن « الكيلو »
من هذا الأرز الرخيص ليكفيه خمسة أيام .

وكان لحجرة محسن الجديدة نافذة لم يفتحها قط منذ
مجيئه ، ولم يدر على أي شيء تشرف . لا يريد أن يعرف ،..
إن نافذة قلبه قد أغلقت . وما من شيء يسترعى التفاته

الآن ، غير أسعار « الأرز » مدونة على البطاقات في
الحوانيت ، وغير عناوين الكتب القديمة ينظر إليها
معروضة في المكاتب دون أن يمسه . وكان أحياناً يامح
فوق غلاف بعض الكتب فقرة أو عبارة أو بيتاً من
الشعر وضع على سبيل الاستشهاد ، فيجعل منه « نغمة »
يظل فكره يرتب عليها « تقاسيم » طول النهار . وكان
يجد في هذا شيئاً من السلوى . غير أن بصره وقع ذات
يوم على كتاب جعل في رأسه هذا القول لشاعر ياباني :

إنما يبني الشاعر سعادته على الرمال

ويسطر أشعاره فوق ماء الجدول

الجارى

نعم ، هنا كل البلاء الآدمى . ألا يمكن للنفس
الشاعرة أن تقيم هناءها على دعائم أثبت قليلاً من هذه
الرمال التى تغرق فيها الأبل ، وتكتب أغانيها على
صفحات أبقى من صفحات هذا الماء التى تطويها في شبه

طرفة العين أنامل الهواء !

نعم هنالك سبيل واحد : لا ينبغي أن نبني شيئاً
جميلاً فوق هذه الأرض !! . هذه الأرض المتغيرة
المتحركة برمالها ومائها وهوائها !

وفطن الفتي ، أن هنالك حقاً نوعاً من الهناء قد
عرفه يوماً . هو هناء الصفاء . هذا الصفاء الذي لا يوجد
إلا في الارتفاع ...

وأحس الفتي فعلاً كأنه قد خف وزناً ، وكأنه
يرتفع ، وكأنه يبتعد عن هذه الأرض ، ليعود إلى
السماء ، إلى سمائه التي كان قد هبط منها ...
ولعل « الأرض » أعانه على ذلك . فان « الزهد » هو
سلم « الصعود » !! .

وأقبل الفتي بعدئذ على غذائه الحقيقير الضئيل في لذة
روحية ، وبسمة راضية وضاعة ، أنارت له مسالك نفسه
المظلمة ، وذكرته بسروره في صباه يوم كان يقتات « بالفول

النابت « ويجلس بكتابه كل يوم إلى جوار ضريح
« السيدة زينب » ...

لم يكن شيء يعكر عليه صفاءه الروحي يومئذ غير
حارس المسجد ، ذلك الشيخ المتأنق في عباءته الثمينة
وشعره المخضب بالحناء وعيونه الكحيلة ينظر بها إلى
صندوق « النذور » بين يديه ، وغير سجاجيد المسجد
الغالية . وثرياته الكبيرة . لماذا كل هذا ؟ إن الفتى لم
يكن قط يخالجه شعور اللذة العليا إلا وهو فوق الحصر
حيث كان يتخذ مكانه دائماً ، لافي قاعة الضريح ذاتها حيث
الفرش والرياش ، وبقيّة تلك المظاهر الحمقاء لذلك
الاحترام الكاذب والخشوع الزائف ، إنما في تلك
الردهة الخارجية التي طرح الحصر على بعض أرضها
وترك البعض الآخر عارياً نظيفاً ، كالنفس النظيفة
العارية . كان يحس الفتى هنالك أنه أقرب إلى روح
السيدة الطاهرة ...

وجعل محسن طول يومه هذا يقلب مثل هذه
الأفكار ، وعأوده شوق وحنين إلى المسجد ، أو إلى
بيت من بيوت الله . وتذكر الكنيسة . نعم إن فيها
أيضاً قد أحس يومئذ عين إحساس الصعود . لكن ،
تلك المراسيم والطقوس ... سرعان ما جذبت به إلى
الأرض لتوقعه في ذلك الحرج الذي وقع فيه ذلك
اليوم ...

نعم ، كلما همت روح الإنسان بالتحليق نحو
الأعلى كبلتها أكاذيب الإنسان وأنزلتها إلى التراب .
كل شقاء إنسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئاً عظيماً
ذا قداسة بغير أن تلبسه ثياباً مبتذلة مضحكة من حمقها
وزيفها وغرورها !

لماذا أراد الناس أن يجعلوا « الله » في حاجة إلى
السجاجيد الفارسية يفرش بها بيوته . و « السيدة » في
حاجة إلى « النذور » والنجف والشمع ، كأنها لا تستطيع

النوم في الظلام . ثم ذلك « القمم » الفضى في الكنيسة ،
وتلك الأشارات والعلامات ، لماذا كل هذا ؟؟ حتى
« الموسيقى العظيمة » التي استطاعت أن ترفع الإنسان
إلى بعض القمم ، سرعان ما جعلوا لها ثياب سهرة ترتدى
من أجلها ، وقواعد وتقاليد لا بد من مراعاتها . وتنقلب
الأمر على مر الزمن ، فينسى الناس الأصل والجوهر
ويذكرون الفرع والعرض . فإذا كل التفاتهم إلى
ثياب السهرة دون « الموسيقى » . وإذا كل عنايتهم
بالمظاهر والمجاملات دون الإيمان والعبادات . ولا
يستثنى من بين هؤلاء إلا الفقراء التعساء الذين جاءوا
حقيقة للصلاة ، ومن بين أولئك .. إلا الهواة « زبائن »
أعلا « التياترو » الذين حضروا حقيقة من أجل
الموسيقى .

إن « الأخلاص » للدين والفن ، يستوجب
« التجرد » !

وذكر محسن « يتهوفن » . وتلك السانفونية
الخامسة التي كان قد سمعها . وذكر ذلك الجو العلوي
الذي عاش فيه ذلك اليوم . فحدثته النفس بالذهاب إلى
« الكونسير » .

نعم ، فليذهب ولو أدى ذلك إلى حرمانه أكل
الموز شهراً بأكمله . لا لزوم للفاكهة . إنه يستطيع أن
يكتفي بالأرز أسبوعاً . وأشرق وجه الفتى لهذه
الفكرة . وأحس كأن برداً وسلاماً يهبطان قلبه
ويضمدان جروحه . إنه الآن يشعر ببعض القوة . ولم
يعد يخشى شيئاً . هو الذي كان قد حرم على نفسه ،
خوف الضعف ، ذكر الجميلة قاطنة نزل زهرة
« الأكاسيا » . تلك التي أجهزت على أمله ذبحاً بخطاب
رقيق رقة حد السكين المسنون !

نعم ، الآن . . . بقليل من الموسيقى يستطيع أن
يعتصم بالسحب ضد هذا الحب الأرضي الذي وضع
أنفه في الرغام .

وذهب محسن إلى مسرح « شاتليه » ، فوجد من
حسن حظه « برنامجاً » موسيقياً حافلاً : « پارسيفال »
وسحر يوم الجمعة الحزينة « لريتشارد فاغنر » ،
و « السانفونية التاسعة » لبيتهوفن .

وكانت نقوده لا تسمح له بأكثر من مكان
للقوف بأعلا المسرح . فما تردد . وكان حريصاً دائماً
على اقتناء ذلك الكتيب الصغير الذي يباع في الردهة ،
فإن فيه تحليلاً دقيقاً في أكثر الأحيان للقطع التي تُعزف ،
وبياناً عن ظروف وضعها ، ونبذاً من تاريخ مؤلفيها
فما أحجم عن شراء نسخة ، وأسرع يتخذ له مكاناً تحت
مصباح من مصابيح الكهرباء ، وجعل يطالع على عجل
هذه السطور :

« لقد أراد فاغنر أن يصور بموسيقاه قصة المسيح
إذ جاء يحمل إلى الإنسانية التي نخرت فيها « الأنانية »
ناموس « الحب » الذي يخلصها من الخطيئة . ولقد جاء

في خطاب خاص أرسله فاجنر إلى صديقه الموسيقى «لست»
كيف نبنت في خاطره فكرة تأليف هذه القطعة ،
ووصف المشاعر التى أثارتها فى نفسه ذكرى الجمعة
الحزينة فى يوم من أيام الربيع ، حيث كان فى مدينة
زوريخ : « لأول مرة استيقظت يوم الجمعة المقدس على
شمس مشرقة . فنظرت إلى الحديقة حولى فألفيتها
خضراء تصدح فيها العصافير . جلست على عتبة البيت
أنعم بهذا « السلام » الذى انتظرتة طويلا . وأثر فى
نفسى هذا الصفاء الذى يكتنف الأشياء ، فتذكرت
من فورى أن اليوم هو يوم الجمعة المقدس . وعند ذاك
خطر لى أن أضع هذه القطعة . . . »

وانقطع محسن فجأة عن القراءة ، فقد أطفئت
الأنوار . ووقف « المايسترو » ينقر بعصاه الرفيعة
نقرأ خفيفاً على قمة مصباحه الأخضر تنبيهاً للعازفين ،
وبدأ الأوركسترا يعزف مقدمة « پارسيفال » :

نعمة ترتفع منفردة أول الأمر لا يصحبها شيء ،
كأنما هو صوت واحد يتكلم ، وسط سكون الكون .
صوت في عين الوقت إلهي وبشري . وتمضي تلك النعمة
حاملة في أعماقها بذور الألحان الدينية التي تتركب منها
القطعة ، إلى أن تقابلها تلك الأقوال المقدسة : خذوا
وكلوا هذا هو جسدي ، خذوا واشربوا هذا هو دمي ...
ثم يسمع من « الكوايتور » شبه رعدة مبهمة بين عديد
من الأنغام السريعة المتعاقبة ورنين الصناجات المكبوت ؛
كأنما هو صوت طليق ممتد يخفت شيئاً فشيئاً تحت
قباب كاتدرائية عظيمة ...

[واستمر الأداء ، ومحسن ليس على هذه الأرض .
إلى أن أشار « الأستاذ » بعصاه إشارة الانتهاء ، وانطلقت
الأيدي بتصفيق كأنه الرعد . فتنبه الفتى] وقام الناس
يدخنون في فتره الاستراحة أو يتحدثون . وبقى محسن
واجماً في مكانه . ولمح على المسرح حركة دخول أفراد

مجموعة المنشدين « الكورس » من سيدات ورجال
ينتظمون في أما كنهم ، فرفع الكتيب إلى عينيه ليقرأ
ما قيل عن قطعة يتهوون ، ويهيئ نفسه للمشول بين يدي
هذا القلب العظيم ، كي يسمع منه ، ويفهم عنه . وقرأ
الفتى هذه الصفحة : « بلغ فن يتهوون في السانفونية
التاسعة غاية ما يستطيعه بشر في عالم البناء الصوتي . ولقد
أخرج هذا العمل في تلك المرحلة من حياته التي ابتلى
فيها بالصمم . كارثة ، جاء ذكرها في وصيته التي كتبها في
أكتوبر ١٨٠٢ على أثر أزمة قوية من أزمت اليأس
تبدو من هذه الأسطر : إلى شقيقى كارل وچوهان
يتهوون ، أتما يا من كنتما تحسبان أنى إنسان حقوق
عند أكره الناس . ما أظلمكما ! إنكما لتجهلان السبب
الخفى لكل هذا الذى ظهر لكما من أمرى . إنى منذ
الطفولة كنت أحس أن نفسى وقلبى يتجهان بطبعهما
إلى الخير . إنى كنت دائماً على استعداد للقيام بأعمال

عظيمة . لكن ... لا تنسيا أنى منذ أعوام ستة أصبت
بداء قاس ، زاده خطراً عجز الأطباء ، وأنى ألفت
نفسى مرغماً على العزلة قبل الأوان ، وعلى إنفاق بقية
حياتى بعيداً عن العالم . ولقد حاولت أن أتجاهل أحياناً
ما نزل بى ، ولكن التجربة المؤلمة كانت تذكرنى
دائماً بأنى قد فقدت السمع ، ومع ذلك فإنى لم أستطع
أن أتجراً مرة وأقول للناس : تكلموا بصوت عال ،
صيحوا ، إنى أصم ! » ، آه كيف أعترف بهذا وأعلن
للناس ضعف حاسة ، كان ينبغى أن تكون عندى أقوى
مما عند جميع الناس . حاسة كنت أملكها فيما مضى
على أكمل نحو وأدق تركيب ، وأرهف شعور مما لم
يتيسر مثله إلا لقليل غيرى من الموسيقيين . كلا .
لا أستطيع . لهذا أرجو أن تصفحاً عنى إذا كنت اليوم
أهجر ، كما تريان ، هذا العالم الذى كنت فيما سبق
أمرح فيه بكل نفس راضية . إنى لشديد الإحساس

بمصيبتى ، وإنى من أجلها ينكرنى الجميع . لم يعد الآن
من حق أن أنشد الراحة فى صحبة إخوانى الآدميين !
انتهت مسرات المحادثات اللطيفة ولذات المناقشات
الرفيعة ، انتهت المصارحات القوية وتبادل المناجاة
الحارة ، حالى الآن لا يسمح لى بارتياح المجتمع إلا بالقدر
الذى تحتمه الضرورة القصوى . ينبغى إذن أن أعيش
مطروداً منبوذاً . أى إذلال يجرح نفسى أحياناً ، إذ
أرى إلى جانبى أحد الناس يصنعى إلى أنعام زممار يعزف
عن بعد ، لا أستطيع أنا أن أسمعها ، أو أناشيد راع ،
لا أستطيع أن أسمعها كذلك . (يروى أحد أصدقاء
بيتهوفن أنه فى صباح صيف ١٨٠٢ استرعى التفات
صديقه إلى راع فى الغابة يعزف على ناي من قصب
ألحاناً شجية ، فأبدى بيتهوفن جهداً مرهقاً لسمع
شيئاً فلم يستطع ، ورفق به صديقه فكذب عليه وزعم
له أنه هو أيضاً لا يسمع شيئاً لبعد الصوت عنهما ،

ولكن يتهوفن فهم الحقيقة وغرق في حزن عميق) .
مثل هذه الحوادث كانت تلقى بي على أعتاب اليأس ،
وكادت تغريني بأن أضع حداً لأيامى . . . ولكنه الفن
وحده هو الذى أبقى على حياتى . آه ، إنه ليشق على ترك
هذا العالم قبل أن أعطى كل ما أحس داخل نفسى من
مخلوقات لم تزل بعد فى طور التكوين ! . . . آه أيتها
القدرة الإلهية ! إنك لترين من عليائك ذلك القاع
السحيق فى أعماق قلبى ، إنك لتعرفين أنه عامر بحب
الإنسانية والرغبة فى عمل الخير . يا شقيقى كارل
وچوهان ، إذا انتهت أيامى وكان طبيي الأستاذ « شميت »
لم يزل حياً ، فالتمس منه باسمى أن يصف دائى وأن يرفق
ذلك بصفحاتى هذه ، فلعل الناس بعد موتى يصفحون
عنى على الأقل . أما إساءاتكم لى ، فأنتم تعلمان أنى قد
صفحت عنها منذ أمد بعيد . . . وكل ما أتمنى الآن أن
تكون حياتكم أيسر من حياتى وأن تُعفيا مما رزئت أنا

به من متاعب . وأوصيكما أن تعلمّا أطفالكما « الفضيلة »
فهي وحدها ، لا « المال » ، السبيل الحقيقي للسعادة .
وإني أتكلم عن تجربة . « فالفضيلة » هي التي كانت كل
سندی في محنتي ، وإليها وإلى « فني » يرجع كل الفضل
في أني لم أجد إلى الانتحار . وداعاً ! وليحب أحدكما
الآخر ! ... » لقد كان يتهوفن يعيش إذن في ظلام
السكون عندما أخرج سائفونيته التاسعة . ولقد احتمل
كل ذلك في جلد كما قال في وصيته ولقد خضع لحكم
القدر في شجاعة كما يقول في مذكرات أخرى :
« الإذعان ، الاستسلام ، الاستسلام ، فلنعرف كيف
نستخرج الدرس الخلق النافع من أفدح المصائب
والكوارث .. ، بذلك نجعل أنفسنا جديرين بمغفرة الله ! » .
لم يبق إذن لبيتهوفن من الحياة غير متعة « البصر »
عيناه وحدها أمستا كل صلتة بالطبيعة ، وقد انحصر
كل فرحه في إرسال النظر إلى وديان « فينر فالد »

الخضراء ، يهيم في غاباتها ملتصقا من الطبيعة العزاء ،
آملا أن يجد في صدرها كل قوى الحياة والخلق ، صائحا
في فضائها من أعماق قلبه تلك الصيحات التي وجدت
مدونة في أوراقه :

« يا رب الغابات ، يا ربى القدير على كل شيء ،
إني أحس البركات ، وأشعر بالسعادة في هذه الغابات ،
هنا كل شجرة من هذه الأشجار تسمعنى صوتك . يا لها
من روعة أيها المولى العظيم ! هذه الأحرار ، وهذه
الوديان ، تفوح برائحة الهدوء والسلام ، هذا السلام
الذى لا بد لنا منه لنستطيع أن نتفانى في خدمتك ! » .
ووقف محسن عن القراءة في عجب وتأثر شديدين !
لكأن عيبراً يعرفه يهب من طيات هذه الكلمات . إن
هى إلا كلمات صادرة من النبع الذى صدرت منه كلمات
أنبياء الشرق .

وأطفئت الأنوار وتكلم يتهوفن . إنه لا يتكلم

كبقية الناس ، لكنه يقيم من الأصوات عالماً لا تدخله
ولا تسكنه غير الأرواح الخيرة المهدبة . وتحدت أركان
تلك السانقونية ، ووضحت للأذان والأرواح هيكلاً
عظيماً مشيداً على أعمده نورانية ، من أنغام آلية
وأصوات آدمية ...

ولم يتمالك محسن . وأخذته رجفة ، وتصيب جبينه
بعرق نشوة عليا ، عند ما ارتفعت الأبواق النحاسية إلى
جانب صيحة « الكورس » :

« قفوا متعاقبين

أيها الملايين من البشر

أيها الأخوة ،

إن فوق النجوم أباً

حبيباً إلى كل القلوب ! »

ولبت الفتى مشدود الأعصاب متفصد الجبين في
شبه ذهول ، حتى عزف الـ « أليجرو » اختاماً ، والتقت

أصوات الرجال والنساء بصوت « الأوركستر » . . . ،
فكأنما أستار السماء قد انفرجت ، ليصل إلى آذاننا غناء
الخور والملائكة مجتمعين في جنة الخلود يلقون نشيد
الفرح ، ذلك القبس الإلهي ، فرح الأنفس التي تعيش
في « الله » !

الفصل التاسع عشر

نزل محسن الدرج ليخرج كعادته إلى الطريق ،
يستنشق هواء ذلك الصباح الجميل ، فرآى باب حجرة
صديقه إيثان مفتوحاً ، وسمع سعاله ، فعطف عليه
وضرب الباب مستأذناً ، فأذن له ، ودخل الفتى فوجد
الروسي جالساً على سريره ، أصفر الوجه ، بين يديه
كتب ثلاثة .

— كيف حالك اليوم يامسيو إيثانو فتش ؟

— بخير .

— إنك تبجهد قواك في القراءة وأنت لم تزل

مريضاً .

— إجلسن ! ..

قالها الرجل على نحو غريب ، عجب له الفتى ونظر
بطرف عينه إلى الكتب وقرأ في دهشة :

— التوراة ، الإنجيل ، القرآن !

ثم التفت إلى إيثان :

— عجباً ! إنك فيما أعلم لا تؤمن بشيء ...

فقال الروسي كالمخاطب لنفسه :

— أريد أن أعرف كيف استطاعت هذه الكتب

الثلاثة أن تعطي البشرية راحة النفس وأن تغمرها في

ذلك الاطمئنان ! نعم ، إني لا أؤمن بشيء . وإني أرى

أحياناً الموت دانياً مني وفي يده « خرقة » ليحوني كما

يمحي رقم كتب بالطباشير فوق لوحة سوداء ! فأحتقر

نفسى وأزدرى كل حياة إنسانية . آه ، ما أسعد أولئك

المؤمنين الذين يرون الموت مرحلة إلى حياة أخرى مجيدة

جميلة ، إنهم لا شك ينظرون إلى الموت كأنه عربة

« بولمان » في قطار سريع يذهب بهم إلى نزهة « آخر

الأسبوع » ، ... إن مثل هؤلاء لا يمكن أن يروا

الحياة الإنسانية إلا أنها شيء عظيم ، لأنها تشغل الكون

دائماً ، طول الخلود ، إنهم لا يستطيعون أن يزدروا أنفسهم ،
هولاء الناس !

— ولماذا لا تؤمن أنت أيضاً بالحياة الأخرى
يامسيو إيثان ؟

— آه ! ثق أنى أريد .. فالرغبة والإرادة لا تعوزانى .
ولكن ... أمن الممكن لمثلئ الآن أن يؤمن بالجنة والنار
كما كان يؤمن بها المسيحيون فى عصر الشهداء . إنهم
كانوا يتقدمون للذبح ، ويلقى بهم إلى أنياب السباع وهم
يسمون ، راضين مقتنعين أن أبواب الجنة مفتوحة
لاستقبالهم ، مصغين إلى صوت المسيح يقول لهم من
عل : « طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة
شريرة من أجلئ كاذبين ، افرحوا وتهللوا ، لأن أجركم
عظيم فى السموات ! » .

— ومثل إيمان المسلمين فى عهد النبى ، فقد حدث
فى موقعة « بدر » التى نشبت بين المسلمين وأعدائهم

من قريش ، أن مساماً ترك القتال وانتحى يأكل بلحاً ،
فسمع النبي يقول : « لا يقاتل اليوم رجل فيقتل صابراً
محتسباً إلاّ أدخله الله الجنة » فقذف الرجل بالبلح من
يده ، وقام يصيح : « أئما بينى وبين دخول الجنة إلاّ أن
يقتلنى هؤلاء ؟ ! » ثم رمى بنفسه فى أحضان الأعداء ...

٦ — نعم ، يخيل إلى أن مثل هذا الإيمان لا يمكن أن
يعرفه الغرب اليوم . إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه
الأديان ، إنما أعطاها على النحو الذى ذكرنا . فتسامها
الغرب وألبسها أردية موشاة بالذهب ووضع على
رؤوسها التيجان المرصعة بالماس وأقبضها صولجانات
الجاه والسلطان والجبروت الأرضى . إن الكنيسة فى
أوروبا كانت فى يوم ما أعظم مؤسسة مالية ، وإن نظامها
الرأسمالى لأدق نظام ، وإن ثروتها الطائلة لتسند ظهر
أقوى البيوت المالية وتقوضها إذا شاءت فى طرفة
عين . فأين ذهبت كلمة المسيح : « ما أعسر دخول ذوى

الأموال إلى ملكوت الله ، لأن دخول جمل من ثقب
إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله ! » .

— وأين ذهبت كلمة النبي محمد : إني قد أوتيت
مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخبرت بين
ذلك وبين لقاء ربي والجنة ، فاخترت لقاء ربي والجنة !
ثم قوله أيضاً : « اللهم توفني فقيراً ولا توفني غنياً
واحشرني في زمرة المساكين ! » .

— نعم لا شك ان المسؤول عن انهيار مملكة السماء
هم رجال الدين أنفسهم . أولئك الذين كان ينبغي لهم أن
يتجردوا من كل متاع الأرض ويظهروا في زهدهم بمظهر
المنتظر حقاً لنعيم آخر في السماء . لكننا نراهم هم أول من
ينعم بمملكة الأرض وما فيها من أكل طيب يكتزون به
لحمًا ، وخمر معتق ينضج على وجوههم الموردة ، وتحت
إمرتهم السيارات يركبونها والمرتبات يقبضونها ...
إنهم يتكلمون عن السماء ، وكل شيء فيهم يكاد ينطق

بأنهم يرتابون في جنة السماء ، وإنهم متكالبون على جنة الأرض ، هؤلاء هم وحدهم الذين شككوا الناس في حقيقة مملكة السماء . إن كل ما بناه الأنبياء بزهدهم الحقيقي وجوعهم وعريهم الذي أقنع الناس بأن هؤلاء الرسل إنما هم حقاً ينتظرون شيئاً في العالم الآخر ، جاء هؤلاء فهدموه ، ... وكانوا هم أقوى دليل على كذب مملكة السماء وخير دعاية لمملكة الأرض . وأنسوا الناس بانغماسهم في هذه الحياة ، أن هنالك شيئاً آخر غير هذه الحياة .

— صدقت في كل هذا يا مسيو إيثان . إن مسلك رجال الدين قد يشكك عامة الناس .. لكن أنت ... من كان مثلك على هذه الثقافة وهذا العلم ... إنك تستطيع أن تقيم إيمانك على لباب الكتب السماوية وحدها بغير حاجة إلى ... أحد ...

— وهذا ما أردت أن أفعله أيها الصديق ، منذ ...

منذ ليال وأيام .. غير أنى ... ينبغي أن أصارحك ...
لم أستطع ... لم أستطع مطلقاً .

— لم تستطع ماذا ؟

— آه .. لقد فسدت في رأسى كل تلك الصور
الجميلة للحياة الأخرى ، كما تفسد زجاجات الصور
الفوتوغرافية عند ما ينفذ الضوء إلى حجرتها السوداء ..
لست أدري سبباً لذلك ، يخيّل إلى أنها الحضارة
الأوروبية الحديثة ، لا تسمح للناس أن يعيشوا إلا في
عالم واحد . إن سر عظمة الحضارات القديمة أنها جعلت
الناس يعيشون في عالمين ، لقد عرفت تلك الحضارات
« العلم » و « العلم التطبيقى » ، فالحضارة التى تشيد الأهرام
لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية ، ومع
ذلك فإن ذلك العلم لم يفسد من الرؤوس زجاجات الصور
التي تمثل الحياة الأخرى . تلك الحضارات أسميها أنا
« الحضارات الكاملة » . ولكن آسيا وأفريقيا ارتبطتا

بالزواج في طور من أطوار التاريخ وأنتجا مولوداً جديداً :
هذه الفتاة الشقراء التي تسمى « أوروبا » : جميلة
رشيقة ذكية ، لكنها خفيفة أنانية لا يعينها إلا نفسها
واستعباد غيرها ...

وهنا قاطعه محسن قائلاً كالمخاطب نفسه :

— نعم . « أنانية » لا تعرف غير حياة الواقع ،
ولا يهمها شقاء الغير ، ولا تحب الحياة إلا في ... الحياة .
فمضى الروسي يقول دون أن يفهم ما جال في خاطر
الفتى :

— نعم ، نعم . هي كذلك حقيقة . إن هذه الفتاة
ترى المجد كله في شيء واحد : أن تضع الأصفاد في
أرجل البشر . وبدأت أول ما بدأت بأبويها : إفريقيا
وآسيا . أنكرتهما وحبستهما . وانطلقت في الحياة
لا يحدها حد ولا يقوم لها شيء . إلى أن انتهى بها المطاف
في بيت من بيوت الليل تديره وتشاهد فيه شجار

السكرارى يحطمون الكراسى والكؤوس . إني أخشى
أن تكون أوروبا موشكة على دفع الإنسانية إلى هوة .
إنها لتثوب أحياناً إلى رشدها وترى مصيرها فتقع في
أزمة من أزمت الضمير . إنها لتستيقظ فيها الروح أحياناً
فتشك في نفسها ويخيل إليها أن مدينتها الخلافة ليست
إلا بهرجاء ، وأن علمها الحديث كله وهو وحده الذى
تتبعه على البشرية فى مختلف تاريخها ، ليس من حيث
القيمة العملية غير « لعب » من صفيح وزجاج ومعدن ،
قدمت للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم ، ولكنها
أخرت البشرية وسلبتها طبيعتها الحقيقية وشاعريتها
وصفاء روحها . إن السكك الحديدية والطيارات قد
أعطتنا السرعة وتوفير الوقت ، ولكن ما فائدة ذلك ،
ولماذا السرعة ، ولماذا توفير الوقت ، كأنما قد هبطت
علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط ، ما نحن إلا قطرات
ماء فى نهر الحياة ، ما حظنا من سرعة التيار واندفاعه إلى



البحر ! إنما حظنا الأكبر في التمهّل حول الأعشاب
 النائية والسكون عند شواطئ الجزر يداعبنا النسيم !
 من الذي استفاد من هذه السرعة الملعونة غير قبضة من
 النهمين جمعوا في أيديهم الثروات وسموا بالرأسماليين .
 أما أنا وأنت وبقية الآدميين الوادعين فقد خسرنا تلك
 الرحلات الطويلة الجميلة على ظهور الجياد أو الأبل ،
 نزل في كل مرحلة نعم بالطبيعة في أشكالها المختلفة وفي
 أوقاتها المختلفة ، نعم كسبنا السرعة ولكن خسرنا ثروة
 النفس التي تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة ، إنا اليوم نفرح
 بكلمة السرعة ، وننسى أنها ليست سوى إغفاءة نقضيها
 في عربة قطار يمرق بنا في نفق مظلم ويوصلنا حقيقة في
 وقت قليل إلى حيث أردنا ، ولكننا لا نعرف بعد ذلك
 ماذا نصنع بالوقت الباقي ، فننفقه في اللحم والسخف ، إن
 الطبيعة لتنتقم ، وإن كل وقت يسرق منها ، لا نجد له سوقاً
 ننفقه فيه غير سوق النخاسة الخلقية والانهطاط الآدمي !!

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

كذلك السينما ، لا تعطينا غير الطبيعة محفوظة في اللعب
أو قصصاً سخيفة تؤثر على أعصابنا تأثير الأفيون .
والراديو وما يقدمه من قشور المعلومات وردى الموسيقى .
كل شيء في هذه المدنية الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل
الإنسانية العليا وصفاتها الآدمية السامية ، وقواها الطبيعية
الكامنة بتعويدها التراخي والكسل باسم « الراحة
الحديثة » حتى نامت كما ترى النفوس والأرواح ،
وأصبحنا أمام ناس مصنوعين من « الألومنيوم » .
مصيبية المدنية الأوروبية نزلت منذ استقرار الصناعة
الكبرى . هذه الصناعة التي شطرت المجتمع الأوروبي
إلى شطرين ، فئة قليلة كل همها جمع المال ، وفئة كبيرة
كل همها أن تقدم هذا المال في مقابل لقمة . الفئة
الأولى لا دين لها إلا الذهب ، والفئة الثانية لا دين لها
إطلاقاً ولا شخصية ولا نفس ، لأنها آلات صماء . إن
نظام تقسيم العمل قد أدى إلى أن صنع الدبوس الواحد

أصبح محتاجاً إلى ثمان عشرة عملية مختلفة كما يقول آدم
سميث ، وأن العامل الواحد قد يقضى حياته كلها في صنع
رأس الدبوس فقط ، وآخر في صنع جزء آخر منه ،
كذلك الحال في صناعة الأحذية فهي في بعض المعامل
الأمريكية تقسم إلى أكثر من مائتي عملية يخص العامل
الواحد منها جزءاً واحداً من عشرة أجزاء كعب الحذاء
معنى هذا أن العامل لم تبق له حتى تلك اللذة الفنية القديمة
التي كان يحسها ويرتاح إليها وهو يصنع بيديه حذاء
كاملاً في حانوته الصغير . نعم . حتى متعة الخلق الكامل
التي كانت تشعره بآدميته قد ذهبت ، وأصبح الآن شأنه
شأن المخرطة أو المطرقة أو المنشار ، يخرط أو يطرق أو ينشر
جزءاً صغيراً معيناً بالذات من هذا الدبوس أو ذاك الحذاء ،
وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته . ما الفرق بينه
إذن وبين الآلة ؛ لا فرق . إن الرجل الشرقي ما زال يحس
آدميته بالنسبة للشيء الذي يصنعه ويخلقه بيديه ، آنية من

الفخار كان أوحذاء أو رداء منسوجا على نول، أو قطعة أرض
يزرعها ويحني ثمارها . إنه لم ينقلب بعد لحسن حظه
منشأراً آدمياً أو مخرطة بشرية . استمع إلى الكاتب
الإنجليزى « ألدس هكسلى » يصف أوروبا الحديثة :
« إن أسلوب الحياة فى العصر الحاضر ليدعو إلى الاشتىزاز
ذلك أن تطور النظام الصناعى قد أدى إلى نمو فجائى لتعداد
أوروبا ، فى نحو قرن واحد تضاعف سكانها . ثم جاء بعد
ذلك التعليم الابتدائى للجميع . فنتج عنه ظهور جمهور
هائل من القراء . ونشط لهذا الجمهور أصحاب الأعمال
فأنشأوا صناعة جديدة : هى صناعة « مادة القراءة » .
هذه « المادة المقروءة » لم تكن ولا يمكن أن تكون
مطلقاً غير بضاعة من النوع الردى جداً . لماذا ؟ تلك
مسألة حسابية : إن عدد الكتاب أصحاب الموهبة الفنية
قليل دائماً . ومن هنا نرى أن الجانب الأكبر للأدب
المعاصر هو دائماً غاية فى الرداءة . ولما كان الأوروبيون

قد اتخذوا عادة القراءة طول الوقت . وتلك رذيلة ،
كعادة تدخين السجائر ، بل ربما كتدخين الأفيون
أو تعاطى الكوكايين ، فإن أوربا اليوم تتغذى بأدب
من الطبقة العاشرة . وهذا كله حدث جديد . إذ في
الماضى لم يكن الناس يعرفون غير قليل من الكتب حقيقة ،
لكنها كانت من أجود نوع . ولأضرب مثلاً بالإنجليز ،
فلقد كانوا إلى عصور قريبة يشبون على « الكتاب
المقدس » وعلى « رحلة الحاج » لجون بانيان . كتابان
لا نظير لهما في نبل المعنى وصفاء الأسلوب . أما اليوم فإنهم
يشبون على « الديلى إكسبريس » وعلى المجلات والقصص
البوليسية . فالتعليم العام كان له هذه النتيجة السيئة :
فهو بدلاً من أن يجعل الناس يقرءون قليلاً الآثار الخالدة
قد جعلهم يقرءون دائماً حماقات مخجلة ! إن الفن القديم قد
يقصر أحياناً عن الإجابة لأنه ساذج أو ناقص ، ولكنه
لم يكن يوماً قط مبتذلاً . لماذا ؟ لأن الأقدمين لم تهباً

لهم الأسباب أن يكونوا مبتدلين !
فأطرق محسن قليلاً ثم قال :

— نعم ، ربما كان هذا صحيحاً . إن الأعرابية في
خيمتها ، تلك التي كانت لا تعرف ما هي القراءة
والكتابة ، كانت تتذوق الجيد من شعر جرير والأخطل
والفرزدق ، وتتغنى بأحسن أغاني مصعب ونصيب
وإسحق الموصلي ، وتطرب للفجر الجميل وتهتز نفسها
لنسيم الأصيل ، وتفضل الصحراء بفتنتها الطبيعية على
سحر القصور الزائف ، إن مستوى الذوق العام
وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية لا شأن له بكتابة
أو قراءة .

فقال الروسي بقوة :

— على النقيض ، إن فكرة التعليم العام للقراءة
والكتابة كغيرها من بقية الأفكار الأوروبية الخاطئة
التي روجتها أوروبا وجعلتها بمثابة المبادئ الثابتة ثبوت

العقائد ، قد انقلبت أسلحة فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية
فالدهاء التي تعاملت تلك الرموز السخيفة ماذا اكتسبت ؟
لقد حُشيت أدمغتها بسخف وقاذورات كما يقول
« هكسلي » ، وهبط مستوى ذوقها ، ومع ذلك لم
تتكون لها شخصية ولا إرادة . فها أنت ذاتها تنقاد
كالخراف إلى كل من يقوم فيها ناعقاً أمام « ميكروفون »
فالدهاء هي الدهماء ، ولا أصلح لقلبها وعقلها من وسائل
الشرق الطبيعية في التهذيب : تعمير قلبها بالدين وعقلها
بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة وتركها تتصل بالطبيعة
لا « محفوفة في علب » الراديو والسينما والكتب ،
ولكن الطبيعة الحقيقية ، أمنا الرؤوم ، تكشف لهم عن
جمالها وأسرارها مباشرة ، بغير وسيط من الرأسمالين
المغامرين وأصحاب الأعمال الأفاكين . تلك هي نتائج العلم
التطبيقي عند ما ترك في أيدي الأوروبيين ، وذلك أثره
في النفس الإنسانية ، انظر بعد ذلك أثره في جسم

البشرية ، تجد أنه استحال إلى قنابل وغازات خائقة
وطورريد وغواصات ودبابات إلى آخر ذلك الإبداع
والتفنن في وسائل الفتك بأجسام البشر . فالعلم التطبيقى
في الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحاً وجسماً . إن
العلم تلك « الماسة » العظيمة المتألقة لم تضعها أوروبا في
قمة عمامتها لتشع نوراً وجمالاً ، ولكنها وضعتها في سن
مخرطة بخارية لتقطع بها زجاج ذلك الكأس العظيم :
كأس البشرية الممتلئ بماء روحها ومادة جسدها .
أما العلم الصرف البعيد عن ضوضاء « الآلة » ومطامع
أصحاب المنافع ، فإن الشرق هو الذى عرفه لذاته كمظهر
من مظاهر العبقريّة الآدمية المفكرة في تعطشها لمعرفة
الحقيقة العليا . وهنا كل نبل العلم وسمو غايته . هذا
العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء
أوروبا ، سبائك ذهبية وأحجاراً كريمة من الزمرد
والفيروز والياقوت ، فاحتفظت الفتاة ببعضه وجعلته

حليا لبهرجها ، وهنا كل جمال أوروبا الفكرى الباقى ،
أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقوداً تضعها فى
المصارف ، وصنعت منها أغلالاً تستعبد بها العالم . ومع
ذلك فهى لم تعرف التحلى بالعلم لذاته إلا منذ عهد
قريبة ؛ لا تنس أن أوروبا هى الوحيدة التى أعدمتم فى]
يوم ما علماءها حرقاً واتهمتهم بالسحر والجنون ، وخنقت
حرية الرأى حتى فى شئون الأدب والفن . وجعلت من
المسيحية التى تبشر بالمحبة والسلام سلاحاً للفتك أمام
محاكم التفتيش . ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلاً من
ذى قبل ، فهى تجيد إخفاء حيوانيتها تحت ريش صناعى
يمثل أجنحة ملاك سماوى . إن أوروبا اليوم فى أزمة
شديدة . لا شك أنها أخطر أزمة مرت بها . ذلك أنها
قد تنبّهت إلى أن ما زعمته مدينة عظيمة قد أفلس وظهرت
من تحت الريش أنياب الخنازير البرية . وقد فهم الشرق
أن فتاته ليست إلا غانية خليعة لا قلب لها ولا ضمير ،

وليست لها قيمة روحية ولا خلقية ، وأن مآلها السقوط
ممزقة الجسد تحت موائد المعربين في ذلك الحان الذي
تشرف نوافذه من جهة ، على المحيط الأطلانطي ، ومن الجهة
الأخرى على البحر الأسود ! أيها الصديق ، إلى الشرق
إلى الشرق ! فلنرحل معاً إلى الشرق . إن أجمل ما بقي
لأوروبا إنما أخذته عن الشرق . لم تعد حياتي هنا . ماذا
نصنع الآن ههنا ؟؟ حتى راحة النفس لا نجد لها هنا . إن
العودة إلى الهدوء والصفاء هي في عودتنا إلى فضاء
الصحراء ، هناك نستنشق ببلرثينا ، لادخان المداخن ،
ولكن رائحة السماء ، هناك لا نجد تلك السحب الكثيفة
التي تحول بيننا وبين الله ! هلم بنا ، لقد يئست . إن قليلاً
من الأمل كان قد داعب قلبي إذ تذكرت منذ أيام حكاية
عودة الشاعر الفرنسي « كوكتو » إلى حظيرة الكنيسة ،
وأنت لا شك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق ، لقد
استنفد كل حياة الفكر والفن ، وعرف المجد الأدبي ،

وانغمس في نهر الحياة اللاهية ، وبلغ كل ما يستطيع
أن يبلغه الفكر الشارد وحده بعيداً عن الإيمان . فإذا
حدث ؟ تملكه السأم من الحياة ، وشعر بالنقص في
كيانه ، وبالفراغ في قلبه . فضايق ذرعاً بأيامه ، فألقى
بنفسه القلقة في أحضان « الأفيون » لعله يجد فيه الشفاء
والراحة . استمع إليه يقول في خطابه إلى صديقه
الفيلسوف « جاك ماريتان » : « إن الأفيون ليحملنا
إلى نهر الموتى ، إنه ينسخنا ويحيلنا إلى شبه مرج من
المروج اللطيفة ، ويجعل من جسدنا ليلاً تتزاحم فيه
النجوم كأنها النمل ، ولكن سعادتنا هي سعادة في
مرآة ، نغدو فيها من رؤوسنا إلى أقدامنا محض أكلوبة
وإذا نحن كالمومياء : تقف آلة الأجسام وتأبى الأعضاء أن
تطيع ، لا تؤثر فينا تقلبات الطقس وما نعود نشعر
ببرودة أو حرارة . لقد كان مصوروا نابلي يزينون حيطان
المساكن بما يسمونه « خدعة العين » . إن الأفيون

ليس إلا مصوراً طريقته « خدعة الروح » ، إنه يزين
حيطان الحجرة التي أَدخَن فيها بتساوِير تلذلي وتريح
نفسى . إن الأفيون هو طارد الحيرة والقلق . إن الأفيون
ليشبه « الدين » بالقدر الذى يشبه فيه « المشغوذ »
« المسيح » ! .. الخ الخ . وأشرف « كوكتو » أخيراً
على الدمار ، إلى أن ألقى بنفسه فى أحضان الدين . هنا كان
أملى الأخير أنا أيضاً . إذ اعتقدت أن الأوروبي المفكر
الذى شب على هذه المدنية يستطيع أن يعود إلى الأيمان
الحقيقى فى الوقت المناسب . إلى أن قرأت هذه الرسائل
المتبادلة بين « كوكتو » و « ماريتان » . فخامرنى الشك .
إنها رسائل على غاية ما تكون البراعة فى الأسلوب
واتقاد الذكاء ، ولكنها ليست أكثر من « قطع أدبية » .
آه ! إنهم يكتبون « أدباً » هؤلاء الناس حتى يوم
يوهمونا أن المسألة مسألة حياة أو موت . . . ، إن الفرق
بين عبقرية الغرب الروحية وبين عبقرية الشرق الروحية ،

لكالفرق بين « المشعوذ » و « المسيح » ! خذ هذين
الكتيبين اقرأهما واخبرني هل تصدق أن هذين
الرجلين يعتقدان حقاً بالسماء وما فيها من جنة ونار ،
اعتقاد ذلك المسلم الذي قلت لي الآن إنه ألقى البلح
من يده ، وجرى يقدم نفسه للقتل ، واعتقاد أولئك
الشهداء من المسيحيين الغابرين ! إني أفهم أن يتكلم
هؤلاء الشعراء الأوريون عن الدين والمسيح كلاماً كله
إعجاب خالص . إني أيضاً أعجب الإعجاب الخالص بالأديان
ولكن الذي أريد ليس مجرد الإعجاب ، كما نفعل أمام
قطعة فنية من عمل عظماء الفن أو الأدب أو الفكر ،
لست أريد الإعجاب الناشئ عن آلتنا المفكرة وما فيها
من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة ، إنما أريد الإيمان ،
إيمان القلب ، الإيمان الأعمى بأن المسيح في السماء وأن
الله هو الله كما يتصوره البسطاء ، وأن الجنة هي الجنة
كما تخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح : « طوبى

للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات !
طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله ! » .

آه يا صديقي ، يا أخي ، إن أوروبا كلها الآن ليست
إلا رجلا مفكراً قلقاً حائراً يتعاطى الأفيون . إن « چان
كوكتو » هو كل « أوروبا » في أزمتها الحاضرة . انتهت
أوروبا ، ولا شيء من داخلها يستطيع إنقاذها ، لأن كل
شيء يصل إلى « عقليتها » هذه ، تحيله إلى أدب وأسلوب
وزيف وكذب . إنما الإنقاذ من الخارج ، إنما النجاة في
الفضاء .. إلى هناك .. إلى الشرق .. قم معي .. إلى الشرق
افتح هذه النافذة .. دع الهواء يدخل ، إخلع عني هذه
الأردية الثقيلة ... هذه السحب الكثيفة تحجب عني ..
وامتلاً فم الروسي برغوة وزبد ، ووضعه يده على
عنقه يمزق قميصه كأنما هو يخنق . واصفر وجهه محسن ..
ولم يبد حراً . . ثم تنبه قليلاً من ذهوله ، فصاح
صيحة مدوية ، وأسرع إلى الباب يطلب النجدة . . .

But people lost their appeal
see. They shown to people that
they do not believe in what they say.

الفصل العشرون

اعتكف محسن بضعة أيام ، علم خلالها أن صحة
ايشانوفتش غاية في السوء . وجاءه صاحب النزل ذات
صباح يطرق عليه بابه ، ففتح له منفزعا :

— ما الخبر ؟

— صديقك الروسى ...

— مات ؟

— لم يمت بعد ، ولكنه يسأل عنك اليوم منذ

طلعت الشمس ..

— وكيف حاله ؟

— لست أدرى . هو يزعم أنه اليوم بخير ، ولكنه

مريض بذات الرئة ، كما تعلم ، داء لا يرحم ... أتذكر
ذلك اليوم عند ما صحت مستنجداً ؟ لقد أغمى عليه أيضاً

في المساء ، وكان في حالة احتضار حقيقية فاستدعينا له
القسيس . ولكنه ما فتح عينيه قليلا وأبصره حتى صاح
فيه وفينا بصوت خائر لكنه نأثر : « أبعادوا عني هذا
السكير بوجناته الموردة ! » . وتصور عندئذ أي حرج
وقعنا كلنا فيه ! .. على أي حال ، قد بلغتك يا مسيو
محسن ، ولك أن تذهب إليه إذا شئت ، أولا تذهب ...
وخرج صاحب النزل ، تاركا الفتى في مكانه مطرقا
مفكرا . ولم يجد محسن بدا من الذهاب إلى إيفان على
الفور ، فقام ومضى إلى حجرتة ، فوجده في فراشه
يتأمل أشعة الشمس الداخلة من النافذة . وتنبه الروسي
لحركة دخول محسن ، فوجه بصره إليه ، وأشار له بعين
باسمة إلى شعاع ذهبي انعكس على الفراش :

— ما أجمل الشمس اليوم !

— نعم ...

قالها الفتى في غير اكتراث وهو يتأمل وجه الرجل

الشاحب ، وفرحه الذى يشبه فرح الأطفال الساذج
بهذا الشعاع فوق سريره . وساد صمت ، قطعه المريض
بشبه همس :

— آه ، النور ... النور يشرق من بلاد الشمس ،
ليغرب فى بلاد الغرب !

ثم التفت إلى محسن وقال له فى صوت متداع :
— اقرب يا صديقى ، وأنهضنى قليلا .. فانى سئمت
طول الرقاد ! ..

فتردد الفتى خوفا عليه :

— إني أخشى ..

— لا تخش شيئا . ضعنى بجوار النافذة ، أعتنى
على الجلوس حيث يغمرنى نور الشمس .

فلم ير محسن بدا من تلبية رغبته ، فساعده على
القيام ومشى به إلى ظهر صندوقه الخشبي حيث وضعه
عليه وضعاً . فقال الروسى وهو يستنشق الهواء بما بقى
له من رثتين :

— شكرًا لك ... أيها ... الصديق .

ثم أمسك ييد محسن بين يديه ونظر إليه
طويلاً وقال :

— أتعاهدني ؟

— على ماذا ؟

— على أن نذهب معاً إلى .. الشرق ؟

فتردد الفتى قليلاً ثم نظر إلى كيان الرجل الواهي :
— نعم ، عند ما تسترد كل صحتك .

— إني أشعر اليوم أنني قد شفيت ، إن صحتي اليوم
تسمح لي أن أسافر ، اليوم بالذات ، اسمع : إن لدى في
هذا الصندوق مبلغاً من المال ادخرته يكفي نفقات
السفر ، وسأخرج اليوم أبحث عن مشتر لهذه الكتب
وهذه الأمتعة ... لست في حاجة إلى كتب بعد اليوم ،
إنما أنا في حاجة إلى ... هواء ... وفضاء ... وصفاء ...
وخشى محسن أن تنمو الفكرة في رأس هذا

المريض ، فيرتكب حماقة تسيء إلى صحته . فلم يبد تحمساً
لما قال ... ثم أراد أن يثنيه عن عزمه فقال :

— أرى أنك تقسو في الحكم على الغرب يا مسيو
إيثان ، مهما يكن من أمر ، فإن أوروبا قد وصلت بالعلم
البشرى إلى قم لم يصل إليها .

فلفظ الرجل ضحكة سخرية :

— من قال لك ذلك ؟ أتعرف ما هو العلم أيها الفتى ؟

إن العلم « علمان » : العلم « الظاهر » والعلم « الخفي » .
وإن أوروبا حتى اليوم طفلة تعبث تحت أقدام ذلك « العلم
الخفي » الذي كانت حضارات أفريقيا وآسيا قد وصلت به
حقيقة إلى قم . أما العلم « الظاهر » وحده فهو كل ميدانها ؟
إلا أن طاقة الآلة المفكرة محدودة ، وإن كل وسائل العلم
الظاهر هي أعضاؤها وحواسنها الظاهرة وتلك ليس لها
من الدقة ما يقتنص غير الظواهر التافهة من ظواهر
الطبيعة والكون ، مهما عاوتها الآلات والعدسات ...

كل هذا العلم الحديث الذي يبهرك ليس في حقيقته غير
« طريقة » و « أسلوب » ... نعم إن الجديد حقاً في العلم
الأوروبي الحديث هو « أسلوب » التفكير المنتظم « وطرائق »
البحث العقلي المرتب . أما أكثر من ذلك فلا .
وأما أن تسمى مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة
بحواسنا وصولاً إلى قمم المعرفة البشرية ، فتلك هي
السخرية الكبرى . إن قمم المعرفة البشرية هي في مجاهل
ذلك « العلم الخفي » الذي لم يدخل قط عقل أوروبا . لأن
وسائلها كما قلت لك لا تهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة
السطحية . ولا أقسو عليها إذا استعملت كلمة « السطحية »
لأنها هي الحقيقة . إن عين العلم الأوروبي لا تقع دائماً
إلا على سطح الأشياء ، ككل عين . إنها مدنية لا تدرك
ولا تعترف إلا بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق
عقلها ، ولا تقوم إلا على عالم المحسوس ، وإني أصرّ
على أن هذه المدنية الكبيرة إن هي إلا « مدنية ناقصة »

لأنها لا تعرف الحياة إلا في « عالم واحد » . أريد أن
أهرب إلى البلاد التي تعيش في « عالمين » تلك البلاد
التي ارتفعت فيها المعرفة البشرية إلى قمم « العالمين » .
وسكت الرجل قليلا ، ولمح محسن التعب على وجهه
فقال له :

— لا تتكلم كثيراً . أرجو منك ذلك . حسبنا
ما حصل في المرة السابقة . . .
— لن أتكلم ، كفى كلاماً ، ولكني سأفعل ،
إلى العمل . . .
ثم تحامل ونهض قليلا مستنداً إلى الحائط فأسرع
إليه محسن :

— إلى أين ؟
— أرتدى ثيابي ، لأخرج فأبيع هذه الكتب ،
وأتهياً للسفر . . .
— ليس الآن ، ليس الآن . . . إنك متعب .

— دعنى ، أيها الشاب ، سنذهب إلى الشرق ،
أريد أن أرى جبل الزيتون وأن أشرب من ماء النيل وماء
الفرات وماء زمزم وماء ...

— وتترك هذه البلاد .. وهذه الحضارة .. وتترك
« يتهوثن » . آه يامسيو إيثان ! إنك تستطيع أن تقول
كل شيء عن الغرب فأسمع لك . ولكن « يتهوثن »
ها هو ذا نبي حقيق ، ها هو ذا رسول للمحبة والسلام
خليق أن يرفع مجد الغرب أبد الآبدين ... وأن يظهر
الإنسانية وأن ينير القلوب ...

فالتفت الروسى إلى محسن قائلا فى قوة :

— يتهوثن ! يتهوثن ، نعم يتهوثن ، وهاندل ،
وموزار ، وهайдن ، وچان ميباستيان باخ ، وميكل
آنچ ، ورفايل ، ورمبرانت ، وپاسكال ، وسان توماس
وكوبرنيك وجاليليه ودانتى ... الخ الخ كل أولئك إن هم
إلا زهرات يانعات فى حديقة المسيحية الغناء !

ثم وضع يده على كتف محسن المطرق الساهم :
— هلم إلى المنبع ! إلى المنبع ! إلى هناك .. إلى هناك .
ثم ترك الفتى في إطراره ، وتحامل متكئاً على الحائط
يبحث عن حذائه وسترته .. ومرت في رأس محسن
خواطر وبدأت له صور من الشرق اليوم ، فرفع رأسه
وقال لصاحبه الروسي :

— ألم تر الشرق قط من قبل !
فأجاب الرجل وهو يضع حذاءه في إحدى قدميه :
— لم أراه قط إلا في أحلامي ... ولكنني لن أموت
قبل أن أراه ...

فأطرق محسن مرة أخرى ، وهم أخيراً أن يرفع
رأسه ليقول لايفان .

— مهلاً ، مهلاً أيها الصديق ! إن ذلك المنبع الذي
تريد أن تراه ، وتلك الأنهار التي تريد أن تشرب منها
قد تسمت كلها . إن « الفتاة الشقراء » يوم حققت

نخذها بالمورفين السام لم تترك أبويها سائمين . لقد قضى
الأمر ، ولم يعد هنالك نبع صاف . فإن الزهد قد ذهب
كذلك من الشرق . وإن رجال الدين هناك يعرف بعضهم
اليوم كذلك اقتناء السيارات وقبض المرتبات وتورد
الوجنات من النعم والمتع . وإن ثياب الشرق الجميلة النبيلة
هى اليوم خليط عجيب من الثياب الأوروبية يثير منظره
الضحك كما يثيره منظر قردة اختطفت ملابس
سائحين من مختلفي الأجناس وصعدت بها فوق شجرة
ترتديها وتقلد حركات أصحابها . وإن التعليم العام للقراءة
والكتابة والديموقراطية وحق التصويت والبرلمان ، وكل
هذه الأفكار الأوروبية قد أصبحت فى الشرق اليوم
مبادئ ثابتة يؤمن بها الشرقيون إيمانهم بل أكثر من
إيمانهم بمبادئ الأديان . وإنه لمن السهل أن تقنع شرقيا
اليوم بأن دينه فاسد ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن
الديمقراطية أ كذوبة أو أن التعليم العام لرموز الكتابة

هراء . وإنك قد تستطيع اليوم أن تقتلع من رأس الشرق
عظمة « السماء » ، ولا تستطيع مطلقاً أن تقتلع منه عظمة
« العلم الأوروبي الحديث » ، وإنه لمن اليسير أن تسفه عند
الشرق الآن « رسالة » الأنبياء ، ولا يمكن أن تسفه لديه
« رسالة » الصناعة الكبرى ! بل من العجيب أن هذه
الأفكار والمبادئ التي تعتبر في الشرق اليوم ثابتة ثبوت
الآيات المنزلة ، قد يناقشها الأوروبيون أنفسهم
وينقضونها ، وهي ما تزال حافظة عندنا كل قوتها .
وأن المدفع قد ينطلق في أوروبا ضد بعض هذه الأفكار
ونرى ضوء لهبه ولكن الصوت لا يصل إلى آذاننا
لا لبعد المسافة بل لأن آذاننا لا تسمع ، وقلوبنا لا تعى .
لقد كانت « الحقنة » شديدة الفعل والأثر ، نعم ، ولا أحد
يدري هل أوروبا حققت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون
ممزوج بسم نافع ، سرى وما زال يسرى في شرايينه
يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية في النفوس : فشبان

الشرق اليوم عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثالا للرجولة
والبطولة لم يتجهوا شطر «غاندى» ولكنهم اتجهوا
بعيون كأنها منومة تنويم المغنطيس شطر «موسولينى»
ويوم أرادوا أن يجعلوا للتقشف والجلد والخشونة لباسا
لم يضعوا على أبدانهم العارية القوية رداء بسيطاً من
القطن يصنعونه بأيديهم ، لكنهم ارتدوا القمصان
الأوربية ذات الألوان ! إذن حتى أبطال الشرق قد ماتوا
في قلوب الشرقيين !

نعم ، اليوم لا يوجد شرق !! إنما هي غابة على
أشجارها قردة تلبس زى الغرب على غير نظام ولا
ترتيب ولا فهم ولا إدراك .

لم يجرؤ محسن أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه
الروسى . فقد أدرك أن هذا الرجل الذى لم يستطع
شئ فى الغرب أن يشفى نفسه القلقة الحائرة ، قد
وضع كل أمله فى الشرق . وقد صنع للشرق فى رأسه

صوراً عظيمة هي كل أمله الباقي ، وإن كشف الحقيقة
لعينه الآن أفضع طعنة يقتل بها هذا المسكين . فتركه في
خيالاته . ورفع الفتى رأسه أخيراً ليرى ماذا يصنع
صاحبه ، فألفاه ملقى على ظهر الصندوق ورأسه إلى
الحائط وفي إحدى قدميه الحذاء . فأخذه روع لمرآه
وأسرع إليه :

— ما ذا بك ؟ مسيو إيثان ؟ ما ذا بك ؟

فقال الرجل في صوت كالخشرفة :

— فات الأوان !

— أي أوان ؟

— اذهب أنت وحدك ... إلى ... هناك ...

— أأستدعي لك الطبيب ، يا مسيو إيثان ؟

أأطلب لك ...

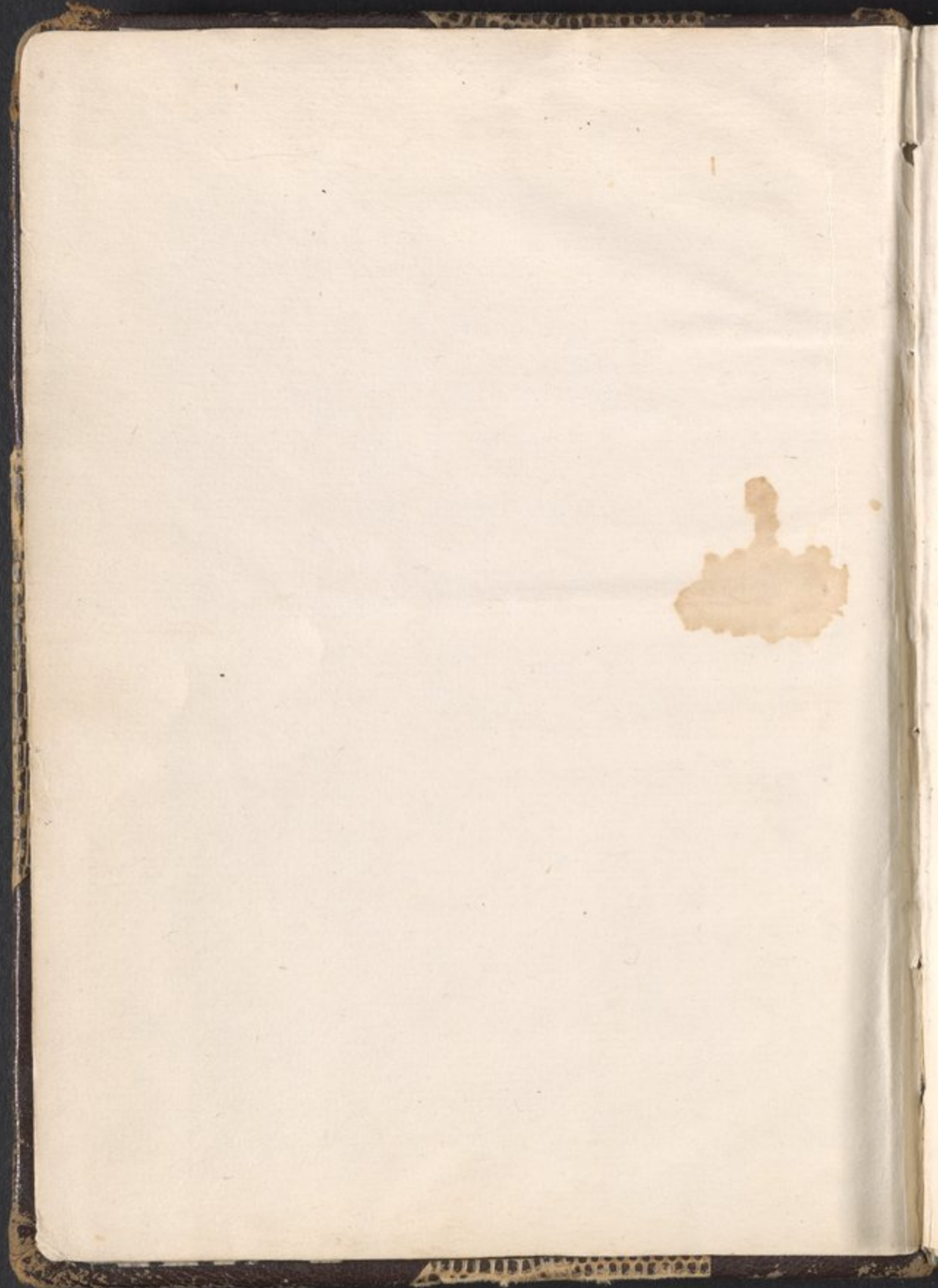
— لا ... لا تفعل شيئاً .. إني .. أعرف نفسي ..

ومال رأسه وانطفأ النور الباقي من عينيه ، لكنه
تحامل وقال في صوت لا يكاد يسمع :
— اذهب أنت يا صديقي ... إلى هناك ... إلى
النبع ... واحمل ذكرای وحدها معك ... وداعاً ...

[انتهى]

11111

AMERICAN UNIVERSITY



28 JUN 2001

PJ
7828
K52
U8
1938

LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY

AUC - LIBRARY



DATE DUE

 AUC 16 FEB 1997	 A.U.C. 13 MAY 1998
 AUC 31 MAR 1997	
 AUC 21 APR 1997	 A.U.C. 28 MAY 1998
	 A.U.C. 12 OCT 1998
 AUC 24 FEB 1998	 A.U.C. 26 OCT 1998

P
78
K52
U8
1938